**الفصل الثاني:**

# الفقه السنني النبوي والسياقات المتعددة

**تمهيد:**

لا ينكر أحد أن السيرة النبوية من حيث هي حياة النبي ﷺ لحظة من التاريخ، تاريخ الرسالات والنبوات، لكنها تتجاوز حدود التاريخ لأنها رسالة عالمية خاتمة، ولذلك فإن وضع السيرة النبوية ضمن سياقها التاريخي لا يكون له أي مسوغ إلا من حيث معرفة التحول الذي أحدثه الرسول ﷺ، لا أن يكون ذلك السياق التاريخي حاكماً على مقتضيات الرسالة النبوية الخاتمة.

إن فهم السيرة النبوية والنظر إليها نظرة عالمية عمرانية تأخذ بعين الاعتبار السياق التاريخي للرسالة الخاتمة، والبنيات الاجتماعية السائدة والأطر المعرفية والذهنية الحاكمة، ومنظومات القيم والعمل الموجهة لمواقف واختيارات وسلوك الإنسان العربي خاصة، وعلاقة ذلك كله بالتحولات الدينية والسياسية في عالم ما قبل البعثة النبوية.

لقد أراد الله تعالى أن تجيء رسالة محمد ﷺ على قدر مقدور، تكون به خاتمة الرسالات ووارثة النبوات، تعلن عن نهاية لحظة تاريخية حضارية شكلت فيها الوثنية والمادية والعبثية عناوين بارزة لمجتمعات وحضارات العالم في تلك المرحلة من تاريخ الإنسانية، وامتدادات ذلك أخلاقياً وفكرياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، كما تعلن عن بداية مرحلة تاريخية جديدة تعيد للإنسانية توازنها وتؤسس لمنظور عمراني إنساني إسلامي عالمي قائم على مرتكزات التوحيد والتزكية والعمران.

إن إدراك حقيقة وأهمية الفقه السنني النبوي لا يتحقق إلا من خلال الكشف عن السياقات المتعددة، سواء تلك المتعلقة بالسياق التاريخي ومنظومة القيم التي أفرزها ذلك السياق، أم تلك المتعلقة بالبنيات الاجتماعية، والكيانات السياسية وأطرها

المعرفية، وهو ما سيسمح بالوقوف على قيمة ومركزية التحول الجذري -تصوراً وممارسة- الذي أحدثه الفقه السنني النبوي.

## أولاً: السياق التاريخي ومنظومة القيم قبل البعثة

لم تعرف سيرة نبي من الأنبياء عبر تاريخ الكتابة والتأليف حجماً من المؤلفات والمجلدات التي تعد بالآلاف، بمناهج مختلفة ومنطلقات معرفية متعددة، مثلما عرفت به سيرة النبي محمد ﷺ. ونظرة في كتب الطبقات والتراجم والفهارس تكفي للوقوف على مقدار ما كتب عن رسول الله ﷺ، ورؤية جميل ما دبجته أقلام أهل العلم والأدب والتاريخ والفلسفة من صفحات عن سيرته، وخصائصه وشمائله وإنجازاته وعمق رسالته. وما يكتب اليوم في الشرق والغرب بأيدي مسلمين وغير مسلمين، وما ينشر من مئات الكتب المحققة، ودراسة وتخريج المرويات المسندة، والدراسات العلمية دليل على أن لكل جيل وفي كل زمان ومكان حظاً من الاستهداء بهدايات السيرة النبوية، والنهل من معينها بغض النظر عن القيمة العلمية والمنهجية لهذه المؤلفات والدراسات. لكن بقيت مع ذلك مساحات شاسعة في شخصية هذا النبي الأمي ﷺ تحتاج إلى استقراء وتأمل وإعمال للنظر بما يتوافق مع طبيعة رسالته والوحي الذي أنزل إليه. فلم يكن التحول الذي أحدثه الفعل الرسالي للرسول ﷺ في البنية الاجتماعية والثقافية العربية مجرد تحول عادي وبسيط، مما يحيلنا على سؤال جوهري يتعلق بفهم المنهج النبوي في إقامة العمران البشري على أبعاد إنسانية رسالية عالمية بعد أن أعاد النظر في الواقع الاجتماعي بأبعاده، ومستوياته النفسية، والثقافية، والاقتصادية، والتنظيمية، وبعث روحاً جديدة في عالم الأشياء، والأشخاص، فأحدث ذلك الانقلاب النفسي والعقدي في البنية الفكرية والذهنية للإنسان العربي.

والذي يبدو لكل دارس للسيرة النبوية، ولكل مطلع على الدراسات العلمية في ميدان علوم الإنسان والاجتماع، لا سيّما علم الاجتماع التاريخي، وعلم اجتماع التنظيمات، وعلم اجتماع التغيير (التنمية)، أن حركة الفعل النبوي الإصلاحية بمكة

والمدينة قد انطلقت من إدراك تام، وإحاطة كلية بالبنى الثقافية، وطبيعة العلاقات والمؤسسات الاجتماعية، وذلك بفضل قوة الانتماء الاجتماعي، والانخراط اليومي، والمشاركة الفعالة بعيداً عن الانسحابية أو الانتظارية، حتى حينما كان إنساناً عادياً لم يوح إليه بعد. ولعل الوقوف على الواقعة الاجتماعية أيام النبي ﷺ قبل البعثة، ومنظومة القيم، والأطر المعرفية التي أثثت الحقل الاجتماعي العربي الجاهلي آنذاك، وتبين الأدوار والوظائف المنوطة بالفرد في علاقته بالتنظيمات الاجتماعية والسياسية السائدة في تلك المرحلة يجعلنا ندرك حقيقة الإصلاح الجذري الذي قام به النبي ﷺ. ولئن كان كثير من كتب السيرة والدراسات التي أنجزت حولها لم تغفل هذا الجانب إلا أنها مع ذلك لم تقدم سوى توصيفٍ للظواهر الاجتماعية قبل البعثة، ولم ترق بذلك التوصيف إلى مستوى من التحليل الذي يتوسل بآليات منهجية ومفهومية أنتجها العقل البشري عبر التاريخ، مثلما فعل ابن خلدون في تحليله لطبيعة الدولة الإسلامية، وتحول العمران الإسلامي من مرحلة القوة إلى مرحلة الضعف والوهن الحضاري.

إن الكشف عن اجتماعيات مكة زمن ميلاد الرسول ﷺ هو تأسيس لتلك المقاربة السننية للسيرة النبوية التي نتوخى من خلالها الوقوف على ذلك المنهج النبوي في بناء العمران الإنساني العالمي، وذلك التحول العظيم الذي أحدثه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الوعي البشري، وأنماط التفكير، وأشكال السلوك، وطبيعة النظر إلى الوقائع والأحداث. وسيكون استحضارنا لتاريخ مكة بقدر ما يتحقق به غرض إدراك ذلك التحول النوعي العظيم؛ إذ مما لا شك فيه أن الدور الرسالي التاريخي الذي أنجزه الفعل النبوي وبتقدير إلهي[1] تشكل في إطار جغرافي واجتماعي وثقافي؛ تمثل فيه الجغرافيا

(١) بعيداً عن التفسيرات المادية التي لا ترى في البعثة النبوية سوى حدثٍ تاريخيٍّ أسهمت فيه عوامل مادية وتاريخية تتويجاً لعودة المجد الحضاري العربي وليس تقديراً إلهياً وإرادة ربانية لاختيار الإنسان محمد ﷺ للرسالة، والمكان مكة أم القرى، ومن بعده ليكون رحمة للعالمين، وزمن القرن السادس الميلادي إيذاناً بميلاد مرحلة جديدة في التاريخ العالمي أرادها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن تكون مكة -في مستهل القرن السابع الميلادي- منطلقاً لها إلى الإنسانية جمعاء. فالرسول عليه ﷺ لم يكن يبحث عن مجد ضائع، ولم يكن يتطلع =

وعاء التاريخ، ويمثل فيه المجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، والثقافة نسق القيم والأفكار والرموز، وإلغاء هذه المحددات هو نفي لبشرية الرسول ﷺ، وعدم تقدير لجهده الحضاري، وسوء إدراك للحكمة الربانية.

لقد كان مجتمع مكة ومن حولها خلاصة المجتمع العربي -بعد هجرات تاريخية وعلاقات مصاهرة- الذي ظل متأبياً على الانخراط في المنظومة الحضارية الفارسية والرومانية، وصامداً أمام محاولات الإدماج القسري ضمن حضارات الآخر الغازي. فالعرب سينسحبون من الريادة الحضارية ودورهم التاريخي الرسالي بعد سقوط بابل (٥٣٩ق.م) بعد ما كانوا قد نجحوا "في توفير أسباب الحياة السامية في ظل أنظمة راقية وقوانين عادلة ودول قوية وحضارة شامخة... وكان من أعظم دلالاتها انتقال الإنسان في الألف الثالث ق.م في المشرق والمغرب من عصور الأمية إلى عصر المعرفة المدونة باختراع الكتابة وحفظ الوقائع التاريخية... مما دفع بالمنصفين من المؤرخين الأجانب إلى الاعتراف بأن العرب قادوا العالم في مرحلتين من مراحل التقدم الإنساني طوال ألفي سنة على الأقل قبل أيام اليونان."[(١)] لكن تصاعد الغزو الفارسي شرقاً، والروماني شمالاً، وتحرشات الحبشة جنوباً، دفع بالعربي إلى الارتماء في أحضان الصحراء، والدخول في حالة من الكمون التاريخي، والمحنة الحضارية محتفظاً لذاته بقيم اعترف بها مؤرخون غربيون معاصرون لتلك الحقبة،[(٢)] وإن تعرضت تلك القيم

---

= إلى النبوة والرسالة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [القصص:٨٦].

(١) الجابري، **العرب والمنطق الفلسفي للتاريخ**، مرجع سابق، ص٥٩-٦٠.

(٢) أذكر هنا شهادة المؤرخ هيرودت (توفي: ٤٠٥ق.م) وإعجابه بالعرب حتى قال: "ليس بين الشعوب أصحاب دين ومحافظة على العهد مثل العرب." أورد هذا القول:

- الشيبي، كامل. "هيرودت أبو التاريخ"، **مجلة آفاق عربية**، عدد (٣)، ١٩٨٢م، ص١١٠-١١٣.

- علي، جواد. **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨م، ج١، ص٢١-٥٧.

لبعض التصدعات والانحرافات، فكانت بعض مقاصد البعثة النبوية إتمام مكارم الأخلاق. وبهذه الصورة يتبين أن العربي لم يكن متخلفاً أصالة، ولم تكن قيمه تعبيراً عن فراغ حضاري ليست له أرضية تاريخية ثابتة. لقد كان هذا العربي مؤسساً لأول حضارة إنسانية بعد الطوفان، وأحدث ذلك الانقلاب الثوري في عالم المعرفة؛ إذ حول البشرية من الأمية إلى الكتابة ودشن عصر العلم والمعرفة، وتوج ذلك برسالة التوحيد لإبراهيم عليه السلام الذي قطع بلاد العرب بدعوته التوحيدية إلى أن بلغ مكة، ورفع هو وابنه إسماعيل قواعد البيت تمهيداً لرسالة الرسول ﷺ، ليرفع قواعد العمران العالمي، ويخرج بدعوة إبراهيم من البعد العربي المحلي إلى آفاق العالم الرحبة، ويدفع بالعربي المسلم إلى الخروج من سلبيته وانغلاقه الذي فرضته عليه الحضارات الغالبة.

إن كلاً من الظروف السياسية بعد سقوط بابل، والعدوان الأجنبي، قد أدخلا إنسان الجزيرة العربية في واقع التجزئة والتشتت، وألزماه حدوداً ضيقة في الفكر والحضارة، وإن احتفظ بصفاء ذهنه وأصالة قيمه، لكن لم يكن ذلك كافياً، ليدخل العربي في متاهات من التشويش والخلل العقدي أخرجته من نور التوحيد إلى ظلمة الشرك، ومن صفاء الإيمان إلى كدر الوثنية، وفقد القدرة على الدفاع عن منظومته العقدية، واستسلم للأفكار الدخيلة والعقائد الفاسدة، ووقع في صنمية مقيتة أفرغت أفكاره من فعاليتها الحضارية؛ فشاعت النظرة المادية، والتعصب للنسب، وبرز إلى الوجود صراع بين قيم البداوة وقيم الحضارة، وبين قيم القوة وقيم المعرفة، وبين قيم العدل وقيم الظلم، وبين قيم التوحيد وقيم الوثنية. وصار العربي يدافع عن استمرارية وجوده الطبيعي معبراً في رموزه الشعرية عن فخره بذاته، وتاريخه وأيامه، حتى تحول ذلك الفخر إلى حالة مرضية وقفت في البداية عائقاً أمام الإيمان بنبوة محمد ﷺ.

لقد كانت مكة مجتمعاً حضرياً؛ إذ أصول الاجتماع وحقائق التاريخ وآيات القرآن كلها تشهد أن مكة كانت "مدينة" تتمتع -على خلاف غيرها- بالاستقرار والأمن نظراً لموقعها الجغرافي، وخصوصيتها الدينية ودورها التجاري "الاستراتيجي" في التبادلات التجارية الدولية قبل البعثة، فصارت مؤهلة -بالإضافة إلى طبائع أهلها في العمران،

والاقتصاد، والاجتماع، والسياسة، وأساليب التواصل اللغوي- لاستعادة دعوة إبراهيم وتجديدها، وختم الرسالة من السماء بدين الهدىٰ والحق. ففيها أول بيت وضع للناس -البيت الحرام- الذي منحها قيمة دينية عند شعوب العالم، ورأت كل حضارة أو ثقافة أن تبحث لنفسها عن صلة وصل مع هذا البيت تستمد منه القداسة وتؤسس لنفسها شرعية دينية مطلقة، وهو مايفسر أيضاً تحول الكعبة إلىٰ متحف للأصنام والأوثان والصور والتماثيل،[1] سواء تلك التي تتعبدها كل قبيلة، أم ما أتي به من الشام أو غيره. ومكة كما أخبر الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هي واد غير ذي زرع، موحش لا يمكن أن تهوي إليه الأفئدة أو تستهويه الأنفس، لما يحمله من قساوة الطبيعة، لكن الله تعالىٰ جعل بقدرته وحكمته أفئدة الناس تهوي إليه بما أودعه في مكة من لطائف رحمته وعظيم حكمته، وبما رزق أهلها من الثمرات تجبىٰ إليهم، قال عَزَّوَجَلَّ ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٩]،[2] "وهذا أصدق وصف،

---

(١) فعن عبد الله -هو ابن مسعود- قال: دخل رسول ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: "جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد." انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح؟، ج٤، ص١٥٦١، حديث رقم (٤٠٣٦).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد، باب: إزالة الأصنام من حول الكعبة، ج٣، ص١٤٠٨، حديث رقم (١٧٨١).

(٢) قال ابن عاشور في تفسيره: "والواد: الأرض بين الجبال، وهو وادي مكة. و(غير ذي زرع) صفة؛ أي بواد لا يصلح للنبت؛ لأنه حجارة، فإن كلمة "ذو" تدل علىٰ صاحب ما أضيفت إليه وتمكنه منه، فإذا قيل: ذو مال، فالمال ثابت له، وإذا أريد ضد ذلك قيل: غير ذي كذا، كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾ [الزمر: ٢٨]؛ أي لا يعتريه شيء من العوج. ولأجل هذا الاستعمال لم يقل بواد لا يزرع أو لا زرع به. و(عند بيتك) صفة ثانية لواد أو حال. والمحرم: الممنع من تناول الأيدي إياه بما يفسده أو يضر أهله بما جعل الله له في نفوس الأمم من التوقير والتعظيم، وبما شاهدوه من هلكة من يريد فيه بإلحاد بظلم. وما أصحاب الفيل منهم ببعيد. وعلق (ليقيموا) بـ(أسكنت)؛ أي علة الإسكان بذلك الوادي عند ذلك البيت أن لا يشغلهم عن إقامة الصلاة في ذلك البيت، شاغل فيكون البيت معموراً أبداً. وتوسيط النداء =

وأجمع كلمة لخصائصها الطبيعية، فكلمة واد تصور أتم تصوير وضعها من الأرض، فهي منخفض تحيط به الجبال، وكلمة ﴿غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ تعطيك أن هذا الوادي له طبيعة شحيحة أشد الشح بالماء، فهي لا تكاد تجود به نبعاً، وإذا جادت به غيثاً تفرق في غير كبير فائدة، وتعطيك لذلك جذوبة الأرض وقحولتها، وتعطيك يبس الطبيعة وقسوتها، وتعطيك شظف الحياة وبؤس العيش، وتعطيك صرامة الجو، ولفح السموم"[1] وتشرف على هذا الوادي الجبال من كل جانب، فتشكلت الشعاب والسيول بسبب غزارة الأمطار رغم ندرتها؛ فمناخ مكة جاف حار قاري في الصيف، ومياه الأمطار لا تكفي للزراعة، فكانت دعوة خليل الله إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾ [البقرة: ١٢٥]، لكن ذلك لم يمنع من الإقامة بها والاستقرار فيها استجابة لدعوة نبي الله إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فرزق أهلها حرماً آمنا تجبى إليه ثمرات كل شيء فضلاً من الله ونعمة، وصارت بذلك قبلة للعرب ومتعبدهم، ورمزاً للقداسة والنصرة. وقد أبعد جواد علي النجعة حينما قال: "ولم يجلب الناس إليها إلا نشاط أهلها، نشاط قصي وعبد المطلب من بعده في خدمة الكعبة والبيت الحرام، وفي خدمة من يقصد هذا البيت"[2] وكأن الناس فارقوا الكعبة زمناً مديداً، وأن مكة ظلت على بداوتها حتى انتزع قصي من خزاعة أمر البيت منهم. وهو أمر وإن تناقله بعض الإخباريين فإنه غير مسلّم به؛ إذ إنّ خزاعة "قبيلة يمنية قدمت

---

= للاهتمام بمقدمة الدعاء زيادة في الضراعة. وتهيأ بذلك أن يفرع عليه الدعاء لهم بأن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، لأن همة الصالحين في إقامة الدين. والأفئدة: جمع فؤاد، وهو القلب. والمراد به هنا النفس والعقل. والمراد: فاجعل أناساً يهوون إليهم. فأقحم لفظ الأفئدة لإرادة أن يكون مسير الناس إليهم عن شوق ومحبة حتى كأن المسرع هو الفؤاد لا الجسد." انظر:

- ابن عاشور. **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١٤، ص٢٤١.

(١) عرجون، **محمد رسول الله ﷺ: منهج ورسالة، بحث وتحقيق**، مرجع سابق، ج١، ص٤٢.

(٢) علي، جواد. **تاريخ العرب في الإسلام: السيرة النبوية**، بيروت وبغداد: منشورات الجمل، ط١، ٢٠٠٩م، ص٦٢.

من بلاد عرفت الحضارة والاستقرار وشؤون الحكم، وهي حين وليت أمر مكة كانت ملتقى طرق القوافل إلى اليمن وإلى الحيرة وإلى الشام، وأنها اتصلت بتجارة العالم عن هذا الطريق، وعن طريق البحر الأحمر."[١]

ويؤكد ذلك قول الطبري حين حديثه عن قتال قصي لخزاعة، أن خزاعة "أخذتها العدسة حتى كادت تفنيهم، فلما رأت ذلك جلت عن مكة؛ فمنهم من وهب مسكنه، ومنهم من باع، ومنهم من أسكن"[٢] وقد حاول عدنان بن محمد الحارثي التوفيق بين الآراء المتعارضة، معتمداً على قول عواطف سلامة في أن مساكن خزاعة "كانت على سفوح الجبال المحيطة بالوادي، فكانوا ينزلون إليه نهاراً لزيارة الكعبة أو الطواف بها، أو الجلوس عند الكعبة لإدارة بعض شؤونهم"[٣] فخلص إلى أن "بناء قصي لدار الندوة وسكنى قومه معه، يقصد به البناء في بطاح مكة حول الكعبة؛ ولذلك عرفوا بقريش البطاح. فعدوا بذلك أول من بنى مكة البلدة المحيطة بالكعبة المشرفة"[٤] ولا سبيل إلى قبول هذا الرأي؛ إذ قريش البطاح لم تظهر إلا بعد تسلم قصي إدارة مكة، وبقي بعض من قريش على سفوح الجبال؛ وهم قريش الظواهر، ولا يمنع ذلك من سكنى خزاعة لمكة قبل قصي، وقول الطبري شاهد على ذلك؛ إذ كيف سيديرون شؤون مكة وهم على الجبال، على ما في ذلك من المشقة الدالة على سوء إدارتهم، وهو ما يتنافى مع تاريخهم الحضاري باليمن.

---

(١) الشريف، أحمد إبراهيم. **مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول** ﷺ، القاهرة: دار الفكر العربي، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، ص ٩٦.

(٢) الطبري، محمد بن جرير. **تاريخ الأمم والملوك**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار الفكر، (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ج٢، ص١٨٢.

(٣) سلامة، عواطف أديب علي. **قريش قبل الإسلام؛ دورها السياسي والاقتصادي والديني**، الرياض: دار المريخ، ١٩٩٤م، ص٦٩. نقلاً عن:

- الحارثي، عدنان بن محمد. "دار الندوة في الجاهلية والإسلام: دراسة تاريخية حضارية"، **مجلة الدارة**، العدد (٣)، السنة (٣١)، ١٤٢٦هـ، ص١٧.

(٤) الحارثي، "دار الندوة في الجاهلية والإسلام: دراسة تاريخية حضارية"، مرجع سابق، ص١٧.

وقد خلف موقع مكة الجغرافي وطبيعتها التضاريسية، وأجواؤها المناخية آثاراً في طباع أهلها وعادات ساكنيها؛ فغلبت عليهم الشدة والحزم، والقوة والعزم، ومالوا إلى التزام المكارم وعشق قيم المروءة والنجدة، وظهر فيهم ما يخالف ذلك من الظلم الاجتماعي، وإيثار المصلحة المادية الضيقة على ما سواها من المصالح حتى لو أدى ذلك إلى وأد البنات، إلا طائفة منهم ظلت متشبثة بما يحفظ لأهل مكة ماء وجههم، فسعوا إلى حماية المظلوم، ووضعوا لذلك حلفاً سموه حلف الفضول،[1] كما رغبوا في السيادة والرئاسة، وعدّوا ذلك رمزاً للمكانة والحظوة الاجتماعية والامتياز السياسي، فتفاوضوا على ذلك، وتقاتلوا، فجرت بينهم حروب ومعارك، لنيل ذلك المطلب في واد غير ذي زرع لا قيمة للرأسمال المادي فيه إلا بما تحوزه العشيرة من سلطة سياسية أو مكانة اجتماعية أو شرف في الحسب والنسب.

---

(١) فمن حديث عبد الرحمن بن عوف قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام، فما أحب أن لي حمر النعم، وأني أنكثه." قال الهيثمي: "رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، ورجال حديث عبد الرحمن بن عوف رجال الصحيح". وسمي حلف الفضول بحلف المطيبين لحضور العشائر نفسها في الحلفين معاً، وقد تقدم زمن حلف المطيبين قبل ولادته ﷺ، فيتأكد شهوده ﷺ حلف الفضول وتحديداً في دار عبد الله بن جدعان، لا سيّما أن روايات أخرى تؤكد عدم شهوده ﷺ مع المشركين أكثر من حلف واحد. انظر:

- الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج٣، ص١٩٣، حديث رقم: (١٦٥٥).
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي. **الأدب المفرد**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط٣، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ص١٩٩، حديث رقم: (٥٦٧).
- البيهقي، **معرفة السنن والآثار**، مرجع سابق، ج١١، ص١٣٤، حديث رقم: (٤٢١٢).
- الهيثمي، علي بن أبي بكر. **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٣، (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ج٨، ص١٨٢.
- العمري، **السيرة النبوية الصحيحة: محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص١١٢.
- الألباني، محمد ناصر الدين. **صحيح السيرة النبوية**، الرياض: مكتبة المعارف، ط١، (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م)، ص٣٥-٣٦.

## ١ - المعتقد:

عرفت مكة التوحيد مذ نزل بها إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فبنى البيت، وأقام الشعائر، وودعا إلى توحيد الله تعالى، وشيد أسس التفكير العقلي السليم، قال عَزَّوَجَلَّ على لسان إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٨١]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فكان من الطبيعي وصم كل من يرغب عن ملة إبراهيم: عقيدة ومنهجاً ومنسكاً بالسفه، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة: ١٣٠]؛ إذ الأصل في الاعتقاد البشري والتدين الإنساني هو التوحيد، فتاريخ الإنسان هو تاريخ التوحيد بدءاً من آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى خاتم النبيئين محمد ﷺ، وتبقى طائفة على الحق إلى يوم القيامة، إلا ما عكر على هذا التوحيد من فهوم البشر وفلسفاتهم غير المهتدية بالوحي. ولذلك، فإن عبادة الطبيعة، وتأليه الأشياء، وتقديس الحيوانات، واتخاذ الأصنام آلهة من دون الله، هو أمر طارئ على البشرية بحكم سنن الله في الاجتماع والأنفس. ورغم ذلك، فإن المعنى الذي يظل محتفظاً به هو حاجة الإنسان إلى الدين وعدم استغنائه عن المقدس في علاقاته الاجتماعية وممارساته اليومية وتفاعله مع الطبيعة. وهكذا كان حال أهل مكة القرشيين وغيرهم من القبائل التي سكنت الجزيرة العربية، لا سيّما وأن مكة تحتفظ في ذاتها بقداسة عالمية، وبجاذبية روحية خاصة بسبب وجود الكعبة بها.

وقد حصل التحول عن التوحيد إلى الوثنية بمكة قروناً قبل البعثة،[1] فاستحكمت

(١) يذكر الإخباريون أن عمرو بن لحي الخزاعي هو أول من حول الاتجاه العقدي من التوحيد الإبراهيمي إلى الشرك والوثنية، وجلب معه الأصنام من الشام إلى مكة، واختلق عادات وطقوساً تعبدية لا تنسجم مع روح الرسالات السماوية، وهو أول من سيب السوائب، قال سعيد بن المسيب : "البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء"، وقال =

فيهم، واتخذت أبعاداً اقتصادية واجتماعية وسياسية حتى تحولت الكعبة إلى معرض عالمي للأصنام، ولوحة غير متجانسة من صور مدعاة للملائكة والأنبياء، واتخذوها بزعمهم آلهة لتقربهم إلى الله زلفى، وقد ذكر الحق في كتابه العزيز آيات دالة على هذا الأمر، منها قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨]، وقوله: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ١٩]، وهي مفارقة غريبة في تطور الفكرة الدينية المفصولة عن هدي السماء والخاضعة لسلطان الطبيعة، تنم عن تناقض مريع في اعتقاد الجماعة البشرية القرشية، وعن حيرة عقلية وحالة نفسية غير سوية عبّرت عنها كثير من مواقف بعضهم، وتشكيك بعضهم الآخر، ومحاولة بعضهم العودة إلى الحنيفية.[1] لقد كانت الكعبة تختزن في داخلها تاريخ الدين والرسالات،

---

= رسول الله ﷺ: "رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار؛ كان أول من سيب السوائب." وتلى هذا الانحراف العقدي إنكار للبعث، وزعم أن الملائكة بنات الله. وانحراف في الممارسة والشعائر لا سيّما ما تعلق بمناسك الحج، والحلف بالآباء، والكهانة، والطعن في الأنساب والنياحة والاستسقاء بالأنواء. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المناقب، باب: قصة خزاعة، ج٣، ص١٢٩٧، حديث رقم: (٣٣٣٣). وفي كتاب: التفسير، باب: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾، ج٤، ص١٦٩٠، حديث رقم: (٤٣٤٧-٤٣٤٨). وكتاب: مناقب الأنصار، باب: أيام الجاهلية، ج٣، ص١٣٩٣، حديث رقم: (٣٦١٩-٣٦٣٠). وباب: القسامة في الجاهلية، ج٣، ص١٣٩٦، حديث رقم: (٣٦٣٢-٣٦٣٧).

- علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، مرجع سابق، ج٦.

(١) منهم زيد بن عمرو بن نفيل، وقد روى البخاري في صحيحه أحاديث في ذلك. وفيه قول أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معاشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري..." قال ابن حجر: "هو ابن عم عمر بن الخطاب بن نفيل ... وهو والد سعيد بن زيد أحد العشرة، وكان ممن طلب التوحيد وخلع الأوثان وجانب الشرك، لكنه مات قبل المبعث." ويظهر هنا خطأ استنتاج جواد علي أن الأحناف عاشوا في عزلة ولم يكلفوا أنفسهم مشقة الجهر =

لكن بصورة وثنية، ويبدو أن الرغبة بدت وكأنها تتجه نحو التأليف بين مستويات مختلفة من التدين والاعتقاد تعبر عن أرضية مشتركة في تفاعل هجين بين أصحاب الرسالات والوثنيات، وهو ما لم يكن ممكناً بحكم الاختلاف البنيوي العقدي بينهما، مما يدفع إلى القول: بأن الطابع الوثني للتدين القرشي هو طابع تطوري مصلحي، لا يأبه بالاختلافات والتناقضات العقدية مالم تؤد إلى اعتداء طرف على آخر. وليس غريباً على العقلية العربية الجاهلية المثقلة بالتناقضات أن تجعل بجانب الأوثان والأصنام صوراً بزعمهم للملائكة والأنبياء داخل الكعبة دون أن يشكل ذلك أدنى حرج أخلاقي أو قلق فكري لهؤلاء، ولكنها المصالح التي كان يدندن حولها الملأ القرشي. فقد وجد الملأ المكي في هذا النمط الجديد من التدين والتعبد تحقيقاً لمصالح مادية، وتثبيتاً لمواقعهم الرمزية داخل الجزيرة العربية، وتكديساً للثروة، واحتكاراً للسلطة.

إن الأثر المادي والناتج الاقتصادي للمعتقد الديني الوثني والممارسة التعبدية الخرافية هي التي جعلت القرشيين يربطون بين الأمن الاقتصادي والآلهة الجدد، وبين الحظوة والمكانة الاجتماعية وتقدير القبائل والدول، والانخراط في تقديس الأصنام والأوثان، وهو ما دفع بهم إلى التصدي لدعوة محمد ﷺ ومعارضتها بزعمهم أنها ستكون السبب في فقدهم لمثل هذه الامتيازات، ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [القصص: ٥٧]،[1] ظناً

= بآرائهم والمناداة بها علناً في المحلات العامة. وأحاديث البخاري تنهض ضد مقالة جواد علي، ولو عاد هو وغيره إلى الصحاح والسنن والمسانيد لكفوا الناس مؤونة تأويلات واستنتاجات لا أصل لها، ولبرئوا من مثل هذه المغالطات والشناعات. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق،: كتاب: مناقب الأنصار، باب: أيام الجاهلية، ج٣، ص١٣٩١، حديث رقم: (٣٦١٤-٣٦١٦).

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٧، ص١٤٣.

- علي، **تاريخ العرب في الإسلام: السيرة النبوية**، مرجع سابق، ص٧٠-٧١.

(١) قال ابن عاشور: "هذه بعض معاذيرهم قالها فريق منهم ممن غلبه الحياء على أن يكابر ويجاهر بالتكذيب، وغلبه إلف ما هو عليه من حال الكفر على الاعتراف بالحق، فاعتذروا بهذه المعذرة، فروي عن ابن =

منهم أن هذه الآلهة المصطنعة هي التي تحقق لهم الأمن والاستقرار، ولذلك رد عليهم الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص: ٥٧]، قال ابن عاشور: "فرد الله عليهم بأن قريشاً مع قلتهم عداً وعدة أتاح الله لهم بلداً هو حرم آمن يكونون فيه آمنين من العدو على كثرة قبائل العرب، واشتغالهم بالغارة على جيرتهم، وجبى إليهم ثمرات كثيرة قروناً طويلة، فلو اعتبروا لعلموا أنّ لهم منعة ربانية وأنّ الله الذي أمنهم في القرون الخالية يومنهم إن استجابوا لله ورسوله... ولكن أكثرهم لا علم لهم. فلذلك لم يتفطنوا إلى كنه هذه النعمة، فحسبوا أن الإسلام مفض إلى اعتداء العرب عليهم، ظناً بأن حرمتهم بين العرب مزية ونعمة أسداها إليهم قبائل العرب. وفعل (لا يعلمون) منزل منزلة اللازم فلا يقدر له مفعول؛ أي ليسوا ذوي علم ونظر، بل هم جهلة لا يتدبرون الأحوال. ونفي العلم عن أكثرهم؛ لأن بعضهم أصحاب رأي، فلو نظروا وتدبروا لما قالوا مقالتهم تلك."[1]

ولم يعد القرشي -بعد التغيير العقدي الذي أحدثته خزاعة في مكة- قادراً على إدراك رسالته التوحيدية التي حملها معه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ووجد في عبادة الوثن، وتقديس الصورة، وتأليه الطبيعة، انخراطاً في التحول العقدي الذي حصل في بلاد النصرانية واليهودية آنذاك عبر أسفار العرب ورحلاتهم التجارية إليها.

---

= عباس أن الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف وناساً من قريش جاءوا النبي ﷺ فقال الحارث: "إنا لنعلم أن قولك حق، ولكنا نخاف إن اتبعنا الهدى معك ونؤمن بك أن يتخطفنا العرب من أرضنا ولا طاقة لنا بهم وإنما نحن أكلة رأس؛" أي إن جمعنا يشبه الرأس الواحد من الإبل وهذه الكلمة كناية عن القلة. فهؤلاء اعترفوا في ظاهر الأمر بأن النبي ﷺ يدعو إلى الهدى. والتخطف: مبالغة في الخطف، وهو انتزاع شيء بسرعة، وتقدم في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٦]. والمراد: يأسرنا الأعداء معهم إلى ديارهم." انظر:

- ابن عاشور. **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢١، ص١٤٩.

(١) المرجع السابق، ج٢١، ص١٤٨-١٥٠.

**٢- منظومة القيم قبل البعثة:**

روت أُمّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْج رَسُول اللهّ ﷺ ذلك الحوار الرائع الذي جرىٰ بين جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والنجاشي، والشاهد عندنا قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "فَكَانَ الّذِي كَلّمَهُ جَعْفَرُ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ: أَيّهَا المِلِكُ كُنّا قَوْماً أَهْلَ جَاهِلِيّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيّ مِنّا الضّعِيفَ، فَكُنّا عَلَىٰ ذَلِكَ حَتّىٰ بَعَثَ اللهُ إلَيْنَا رَسُولاً مِنّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إلَىٰ الله لِنُوَحّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ الله وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَأَمَرَنَا بِالصّلَاةِ وَالزّكَاةِ وَالصّيَامِ -قَالَتْ فَعَدّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ- فَصَدّقْنَاهُ وَآمَنّا بِهِ، وَاتّبَعْنَاهُ عَلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ مِن اللهّ، فَعَبَدْنَا اللهّ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئاً، وَحَرّمْنَا مَا حَرّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدّونَا إلَىٰ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهّ تَعَالَىٰ، وَأَنْ نَسْتَحِلّ مَا كُنّا نَسْتَحِلّ مِنْ الْخَبَائِثِ، فَلَمّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَضَيّقُوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إلَىٰ بِلَادِك، وَاخْتَرْنَاك عَلَىٰ مَنْ سِوَاك؛ وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِك، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَك أَيّهَا المَلِكُ."[1]

يدل هذا التشخيص الاجتماعي والقراءة التاريخية الدقيقة التي قام بتوصيفها جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للحظة التي تعيشها مكة في ضوء مجيء الرسالة الخاتمة على وجود منظومة قيم متعارضة مع مقتضيات الرسالة الخاتمة إلا ما كان من بعض مكارم الأخلاق كما صرح بذلك حديث آخر؛ فهي منظومة قيم تتعارض وتتناقض مع الرؤية

(١) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري المعافري، **السيرة النبوية**، تحقيق: مصطفىٰ السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده، ط٢، (١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م)، ج١، ص٣٣٦، ورواه أحمد من طريق ابن إسحاق، وصححه أحمد شاكر. انظر:

- الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج٣، ص٢٣٦، حديث رقم: (١٧٤٠).

التوحيدية الكونية التي تؤسس وعياً لدى المسلم بحايث المادة/ الطبيعة ويفارقها؛ بحايثها حيث هي الحقل والفضاء العام لحركة المسلم وسعيه اليومي ضرباً في الأرض، ومشياً في مناكبها، ومدافعة لأهل الباطل، ومزاحمة لهم في ميادين المال ومصادر الإنتاج، ثم هو يفارقها؛ لأنها ليست الغاية والقصد والمنتهى.

وتعبر كلمات جعفر بن أبي طالب عن تفكك وتقطع شبكة العلاقات الاجتماعية بفعل تحول قيم الدين الإبراهيمي التوحيدي بوصفه ممارسة لدى القرشيين إلى قيم تابعة للمصالح الاقتصادية والتجارية، فكل شعائر البيت تم توظيفها وتحويرها لتحقيق امتيازات مادية، ولذلك فإن "بناء قريش الاجتماعي صار يتحول تحولاً سريعاً من توحيد الولاء لله إلى الإشراك الوثني، ومن الانفعال بقيم الغيب إلى الانفعال بقيم التجارة، وهو تحول سيقود إلى الانهيار إذا اعتبرنا بسنن التاريخ والاجتماع؛ لأن قيم التجارة وحدها لا تقوى على أن تكون رباطاً اجتماعياً إذا انفكت عن قيم الدين أو إذا علت عليه."[1]

لقد استحكمت حلقات منظومة قيمية تراتبية تقيم الفوارق بين شرائح المجتمع على أساس النسب والجاه والقوة والمال، وقد يهتز أساس الانتساب العرقي إذا ما تعارض مع المصلحة الاقتصادية فيقع قطع الأرحام الذي تحول إلى ظاهرة اجتماعية، تنذر باقتراب انهيار التماسك الاجتماعي القرشي، وأنه لم يعد صالحاً لتمثيل البيت الحرام بسبب جعله مركزاً اقتصادياً بالدرجة الأولى. إنه نظام للقيم فاقد للحدود بين الخبائث والطيبات، بين الفواحش والمحامد، مغرق في المادية والمصلحية الآنية، وخاضع لاهتمامات وانشغالات يومية مبتذلة تعبر عن درجة تطور هذا المجتمع وآفاقه المحدودة.

لقد صارت منظومة القيم عند عربي ما قبل الإسلام قائمة على مرجعية آبائية تقليدية غير قادرة على التحرر من سلطة الآباء، تعمل على إعادة إنتاج الإرث الآبائي دون أية رغبة في التجدد والتطور، مما نتج عنه ضمور الفعالية الحضارية، وخفوت

(١) التيجاني، **أصول الفكر السياسي في القرآن المكي**، مرجع سابق، ص١٣٥.

الفكرة الدافعة للانفلات من قيود المادة، وضيق الرؤية الأرضية والدنيوية القاصرة، وسادت في مقابل ذلك قيم استكبارية عاجزة عن تحقيق السلم الاجتماعي الداخلي، لتعلقها بمرضي الطغيان والاستكبار، ومضاعفاتها الاجتماعية والثقافية.

## ثانياً: البنيات الاجتماعية والأطر المعرفية السائدة قبل البعثة

إذا كان الحديث في العنوان السابق قد انصب على فهم السياق التاريخي ومنظومة القيم قبل البعثة، فإن الوقوف على حجم وقيمة ومركزية التحول الجذري -تصوراً وممارسة- الذي أحدثه الفقه السنني النبوي يقتضي معرفة طبيعة البناء الاجتماعي العربي المكي، وأطره الذهنية التي عملت على صياغة نموذج للحياة، ونمط للعيش، وأسلوب للتفكير والإحساس والعمل؛ أي تلك الشاكلة المعرفية التي كانت تحكم عالم الثقافة داخل المجتمع المكي تحديداً.

وتجدر الإشارة إلى أنه لا يمكن إغفال دور التاريخ والجغرافيا في تأثيث البنيات الاجتماعية والأطر المعرفية داخل أي شكل من أشكال الاجتماع البشري، فللتاريخ قوته في توجيه حركة المجتمع، وللعوامل الجغرافية والطبيعية أدوار لا تنكر في صياغة نموذج عمراني ما. إلا أن ذلك لا يعني القول بحتمية العامل المادي الطبيعي والعامل التاريخي، كما تذهب إلى ذلك الفلسفة المادية بشتى تياراتها ومدارسها المتعددة، التي أقصت تأثير عامل الفكرة والدين في إحداث التحول المباشر لصالح الجغرافيا والاقتصاد. من هنا يمكن فهم ضلال وخطل تلك القراءات الماركسية العربية[1] للسيرة النبوية التي أقصت عناصر الغيب والوحي والعقيدة في توجيه حركة الإصلاح الحضاري التي قادها النبي ﷺ وعدّت أن نجاح المشروع الرسالي للنبي ﷺ كان متوقفاً على الواقع الاقتصادي المكي وثورته على احتكار الثروة من لدن الملأ المكي.

---

(١) نذكر نماذج من هذه القراءات مثل:

- تيزيني، طيب. **مقدمات أولية في الإسلام المحمدي الباكر**، دمشق: دار دمشق، ط١، ١٩٩٤م.

ومع ذلك فإننا لا ننكر أثر البيئة الطبيعية على نمط الاجتماع السكاني؛ فمفردات البداوة -بوصفها نمطاً اجتماعياً وثقافياً وليس أسلوباً للعيش، فمكة مدينة مثلها مثل يثرب (المدينة فيما بعد) والطائف، لكن النسق الثقافي البدوي كان طاغياً عليها وإن كان لدى أعراب البدو أشد- وقساوة الطبيعة، وواد غير ذي زرع، والرمال المتحركة، والأحجار البركانية الحارقة، مفردات دالة على ما يمكن أن يكون عليه أمر البنية الاجتماعية، والأطر المعرفية لأهل مكة قبل الإسلام، ولم يكن بإمكان هذه البيئة المادية أن تفعل مفاعيلها السلبية إلا لأنها افتقرت إلى قوة الدفع الحضاري والنفير الإيماني وما لهما من دور في شحذ الفكرة البانية للعمران، والمنشئة للتغيير الثقافي، والمحفزة للفعالية الحضارية المحققة لأعلى درجات الإنجاز في استثمار الإمكانات التسخيرية، وهو ما ستحمله معها الرسالة الخاتمة.

ويقدم المفكر الجزائري مالك بن نبي (توفي: ١٩٧٣م) تصوره الخاص حول بنية الاجتماع العربي قبل الإسلام وفق نموذجه التفسيري القائم على تقسيم المجتمع البشري إلى ثلاث مراحل كبرى هي:

- مرحلة المجتمع قبل التحضر.
- مرحلة المجتمع المتحضر.
- مرحلة المجتمع بعد التحضر.[١]

وما يحكم هذه المراحل الحضارية للمجتمع حسب تحليل ابن نبي هو كيفية حضور العوالم الثلاثة: الأشياء والأشخاص والأفكار داخل بنائه الثقافي،[٢] ويرى بأن "البيئة الجاهلية تمثل أصدق تمثيل مجتمعاً هو في عمر الشيء، ويجب أن نلاحظ إضافة إلى ذلك أنه في هذا المستوى من مرحلة ما قبل التحضر؛ فإن عالم الأشياء يكون

(١) ابن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص٣٧.

(٢) المرجع السابق، ص٦٣.

هو نفسه شديد الفقر وتكون الأشياء فيه بدائية... إن عالم الأشخاص في المجتمع الجاهلي قد انحصر في حجم القبيلة، فيما عالم أفكاره قد تمثل بوضوح في تلك القصائد المتألقة الشهيرة بالمعلقات، وهو بالإجمال -شأن عالم أشخاصه- عالم محدود يستقي منه الشاعر الجاهلي أبياته البراقة، ليشيد بمجد قبيلته وانتصارها... هكذا كان وجه ذلك المجتمع الجاهلي المنغلق على نفسه، والذي كانت تتلاشى على أرباضه حركات المد والجزر التاريخية للأمم العظيمة التي جاورته: الإمبراطورية البيزنطية، والإمبراطورية الفارسية، ومملكة الحبشة في الجنوب."[1]

لقد كانت الأشياء تحتل القمة في سلم القيم داخل المجتمع المكي وحولها يتمحور عالم الثقافة والأطر المعرفية، حيث تفرض الأشياء سلطانها وجاذبيتها بسبب ندرتها، وفي مقابل هذه الندرة كان غنى إنتاج الأدب وصناعته، لكنه لم يكن ليخرج عن عالم الأشياء إلا نادراً؛ لأن علاقة الشاعر العربي لم تكن مع أفكار تملك أصالتها وفعاليتها، وإنما ظل أسير النمط الثقافي العام، ومشدوداً إلى ذلك الإصر الاجتماعي المحكوم بعصبيات متناحرة، وتلك الأغلال النفسية الهائمة في أودية الغواية، والظن، والخيال المناقض للواقع، والهوى وضيق الرؤية، ومجرد الانفعال الساذج بتلك البيئة الاجتماعية والطبيعية فحرمته تلك الأغلال والآصار من بلورة تفكير عقلي ناضج.

وحين قال الرسول ﷺ "إن من الشعر حكمة؛"[2] أي "قولاً صادقاً مطابقاً للحق... قال ابن التين:[3] مفهومه أن بعض الشعر ليس كذلك، لأن "من"

---

(١) المرجع السابق، ص٣٨-٣٩.

(٢) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الأدب، باب: ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه، ج٥، ص٢٢٧٦، حديث رقم: (٥٧٩٣).

(٣) عبد الواحد بن التين الصفاقسي المغربي المحدث المالكي (توفي٦١١هـ). له شرح الجامع الصحيح للبخاري في مجلدات. انظر:

- مخلوف، محمد بن محمد بن عمر. **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، تحقيق: عبد المجيد خيالي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، ج١، ص٢٤٢.

تبعيضية"[1] وحين قال: "إن من البيان لسحراً"[2] كان في حقيقة الأمر يصحح منظور العربي إلى الشعر وضرورة صرفه إلى الحق، ويشير إلى أولئك الشعراء الذين شذوا عن القاعدة التي شاعت في البيئة الجاهلية، فلم يقف بهم التفكير الشاعري عند عتبة الشعور والإحساس المقيدين بأغلال العصبية والهوى... قال ابن حجر: "وإلى هذا أشار مالك حيث أدخل الحديث في"الموطأ" في "باب ما يكره من الكلام بغير ذكر الله "وتقدم في "باب الخطبة" من كتاب النكاح في الكلام على حديث الباب من قول صعصعة بن صوحان[3] في تفسير هذا الحديث ما يؤيد ذلك، وهو أن المراد به الرجل يكون عليه الحق، وهو ألحن بالحجة من صاحب الحق فيسحر الناس ببيانه فيذهب بالحق، وحمل الحديث على هذا صحيح، لكن لا يمنع حمله على المعنى الآخر إذا كان في تزيين الحق، وبهذا جزم ابن العربي وغيره من فضلاء المالكية. وقال ابن بطال: أحسن ما يقال في هذا أن هذا الحديث ليس ذماً للبيان كله، ولا مدحاً لقوله من البيان، فأتى بلفظة "من" التي للتبعيض."[4]

ويحدد القرآن الكريم طبيعة البنيات الاجتماعية وأطرها المعرفية من خلال مصطلح "الجاهلية". ومصطلح "الجاهلية" القرآني محدد منهجي ومعرفي لفهم البنيات الاجتماعية والأطر المعرفية قبل البعثة. وقد ورد مصطلح "الجاهلية" في القرآن أربع

---

(١) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١٠، ص٥٤٠.

(٢) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الطب، باب: إن من البيان سحرا. ج٥، ص٢١٧٦، حديث رقم: (٥٤٣٤). وفي كتاب: النكاح، باب: الخطبة، ج٥، ص١٩٧٦، حديث رقم: (٤٨٥١).

(٣) صعصعة بن صوحان، هو: صعصعة بن صوحان بن حجر، روى عن عثمان وعلي وابن عباس، وروى عنه ابو إسحاق السبيعي والشعبي قال ابن سعد: كان ثقة قليل الحديث، توفي بالكوفة في خلافة معاوية، ذكره ابن عبد البر في الصحابة، وقال: كان مسلماً على عهد رسول الله ﷺ ولم يره، وكان سيداً فصيحاً خطيباً. انظر:

- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد. **تهذيب التهذيب**، تحقيق: إبراهيم الزيبق وعادل مرشد، بيروت: مؤسسة الرسالة، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م)، ج٢، ص٢١٠.

(٤) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١٠، ص٢٣٨.

مرات في أربع سور مدنية وهي: آل عمران، والمائدة، والأحزاب، والفتح، ولم يرد هذا المصطلح في القرآن المكي حيث مظاهر الجاهلية جلية واضحة، وإنما ورد في القرآن المدني. ودلالات هذا الورود بحسب علمي أجملها فيما يأتي:

- إن الجاهلية نسق ثقافي، ونظام اجتماعي، ومنظومة قيمية وتدبير للشأن السياسي مخالفة تماماً ومتناقضة مع الإسلام: ثقافياً واجتماعياً وقيمياً وسياسياً، ولم يكن بالإمكان عقد وجوه التقابل إلا حينما تشكل الإسلام مجتمعاً ودولة.

- إن المفاصلة التامة بين مجتمع الجاهلية ومجتمع الإسلام لم تكن ممكنة داخل الاجتماع العربي المكي -إذا استحضرنا الشروط البنيوية والتاريخية لوجود مجتمع ما- حيث المسلمون قلة لا يكادون يشكلون سوى مجموعة انفلتت من قيود آليات الضبط الاجتماعي للمجتمع الجاهلي. "لكن من وجهة نظر أخرى، تتجوز في الأمر، فإن المجتمع المكي المسلم موجود ومتميز عن المجتمع المشرك... ويمكن فهم هذا الرأي من وجهة النظر التي لا تسلب الفرد دوره في صناعة التاريخ بالرغم من أن حركة المجتمع هي العنصر المتحكم والموجه الأكبر، لا سيما في هذه الفترة التي استشعر فيها كل فرد ما عليه من أمانة ثقيلة فواجهها وتحملها..."[1]

- تحذير القرآن المسلمين من العودة إلى ممارسات الجاهلية، ومظاهرها الانحرافية، رغم تشكل نظام الإسلام اجتماعياً وسياسياً.

- إن دوائر الاستكبار الجاهلي وسطوته الإعلامية والفكرية والعقدية، إنما كانت متمركزة بالمدينة وهي: دائرة الوثنية وهي امتداد لوثنية المكيين، ودائرة النفاق

(١) الوثيق، محمد. "القيم الحضارية في الأحاديث المكية"، ضمن أعمال ندوة القيم الحضارية في السنة النبوية، دبي: كلية الدارسات الإسلامية والعربية: ط١، (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م)، ج١، ص٩١.

والإرجاف، ودائرة اليهود. وأن هؤلاء هم حماة الجاهلية، ورعاتها عبر التاريخ.

بل نذهب إلى القول: إن لفظ الجاهلية لم يكن متداولاً لدى العرب قبل الإسلام، وقد تحصل هذا الاستنتاج نفسه لمحمد حسن شراب فقال: "لم نقع على لفظ الجاهلية في نص جاهلي،"[1] بل لم يكن شائعاً ومتداولاً في الخطاب النبوي أو بين الصحابة، لكننا نعثر على هذا اللفظ -ولعله أول مرة يستعمل فيها- في حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في الهجرة إلى الحبشة وقول جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنجاشي: "كنا قوماً أهل جاهلية"[2] وأم سلمة كانت حاضرة هناك، فهي التي روت هذا الحديث الطويل المشهور، وعادت بعد ذلك إلى مكة في جماعة حين بلغهم خبر هجرة رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى المدينة، وتأخر منهم من تأخر فعاد إلى المدينة، ففي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال للمسلمين: "أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين.[3] فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة"[4] وإذا دلت رواية البخاري على أن المهاجرين قدموا من الحبشة -أهل الهجرة الثانية التي كان فيها جعفر بن أبي طالب كما يدل عليه سياق حديث البخاري- إلى المدينة دون تعيين لعدد من قدم منهم، فإن أهل العلم بالسير يشيرون إلى قدومهم إلى مكة أولاً، ثم خروجهم منها إلى المدينة، ويذكرون عدتهم، وقد عدوا أم سلمة منهم، فكانت ممن هاجر من

---

(١) شراب، محمد محمد حسن. **في أصول تاريخ العرب الإسلامي**، دمشق وبيروت: دار القلم ودار الشامية، ط١، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م)، ص٢٨٥.

(٢)البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، ج٣، ص١٤٠٥.

(٣) وهما الحرتان، والحرة أرض حجارتها سود. وقد أدرج ابن شهاب الزهري تفسير "لابتين" فقال: "الحرتان." في الخبر الذي رواه عن عروة عن عائشة. انظر:

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٧، ص٢٣٤.

(٤) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة الحبشة، ج٣، ص١٤٠٥. وجزء من حديث الهجرة الطويل الذي روته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، في كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ج٣، ص١٤١٧، حديث رقم: (٣٦٩٢).

مكة إلى المدينة في قصة مشهورة،[1] وكل ذلك يدل على ورود هذا اللفظ قبل العهد المدني، وذلك فيما بين السنة السابعة إلى حين عودة أم سلمة وزوجها ومن قدم معهم من المهاجرين، وهذا يفيد استعمال جعفر بن أبي طالب للفظ الجاهلية أمام النجاشي وهو يمثل جماعة المسلمين.

وإذا كان هذا اللفظ غير متداول لدى العرب في أشعارهم وكلامهم -فيما يبدو- فكيف جرى على لسان جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ إن البحث عن جواب لهذا السؤال من خلال تتبع واستقراء لروايات السيرة وأحاديث النبي ﷺ أفضى بنا إلى العثور عن استعمال وحيد -فيما أعلم- للنبي ﷺ لهذا اللفظ بعد السنة العاشرة من مبعثه وذلك لما أمر بعرض دعوته على قبائل العرب. ففي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: "حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: لَمَّا أُمِرَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَعْرِضَ نَفْسَهُ عَلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ خَرَجَ وَأَنَا مَعَهُ، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ "وفيه" ثُمَّ نَهَضَ رَسُولُ الله ﷺ قَابِضاً عَلَى يَدِ أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ يَقُولُ: "يَا أَبَا بَكْرٍ، أَيَّةُ أَخْلاقٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَا أَشْرَفَهَا، بِهَا يَدْفَعُ الله بَأْسَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ"[2] وبذلك يبدو أن استعمال جعفر للفظ الجاهلية لا شك

---

(١) أخرج القصة ابن إسحاق بسند متصل رجاله ثقات، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث فزالت شبهة تدليسه، فالحديث حسن. انظر:

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٨٠.

(٢) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين. **دلائل النبوة ومعرفة أحوال الشريعة**، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ج٢، ص٤٢٢-٤٢٧.

قال ابن كثير معلقاً على هذه الرواية: "هذا حديث غريب جداً كتبناه، لما فيه من دلائل النبوة ومحاسن الأخلاق ومكارم الشيم وفصاحة العرب، وقد ورد هذا من طريق أخرى." وقد حسن الحافظ ابن حجر إسناده، وضعفه الألباني، وقد ورد بأسانيد فيها من هم مختلف في توثيقهم، وفي بعضها مجاهيل، وهي أسانيد يقوي بعضها بعضها، ولايتعارض متنها مع مقاصد الرسالة وكليات الشريعة وسنن الاجتماع البشري، وفي الحديث من المكارم والفصاحة ما ذكر، ونرى والله أعلم رأي ابن حجر. وسيأتي إن شاء الله بتمامه في الفصل الثالث من هذا الباب.

- ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر. **البداية والنهاية**، تحقيق: حامد أحمد الطاهر، =

أنه سمعه من رسول الله ﷺ، كما يبدو أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يكن يستعمل هذا اللفظ في مواجهته للقرشيين.

وقد اقترن مصطلح الجاهلية تحديداً -دون الحديث عن اشتقاقاته- في السياق القرآني بـ: الظن (ظن الجاهلية في سورة آل عمران)، والحكم (حكم الجاهلية في سورة المائدة)، والتبرج (تبرج الجاهلية في سورة الأحزاب)، والحمية (حمية الجاهلية في سورة الفتح).

وفيما يأتي ذكر للآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ "الجاهلية":

- ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤].

- ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٤٩ - ٥٠].

- ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣].

- ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح: ٢٦].

---

= القاهرة: دار الفجر للتراث، ط١، (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م). ج٣، ص١٤٤.

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٧، ص٢٢٠.

- الألباني، محمد ناصر الدين. **سلسلة الأحاديث الضعيفة**، بيروت والرياض: المكتب الإسلامي ومكتبة المعارف، (د. ت.)، حديث رقم: ٦٤٥٧.

فآية آل عمران -وفيها ذكر ظن الجاهلية- تلمح إلى ما يقابل الجاهلية وهو الحق، وهي إشارة إلى الأساس المعرفي والعقلي الذي تقوم عليه الجاهلية، ممثلاً في الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، كما أن سياق الآية المتعلق بغزوة أحد ورجوع عبد الله بن أبي وأصحابه من المنافقين[1] وعدم مشاركتهم في القتال يفيد ارتباط دلالة الجاهلية بحركة النفاق داخل المدينة.

أما آية سورة المائدة -وفيها ذكر حكم الجاهلية في مقابل حكم الله- فتشير إلى البعد القانوني التنظيمي الذي يتأسس عليه المجتمع الجاهلي، القائم على الأهواء والميول الذاتية، حيث تتخذ الجاهلية لنفسها نظام حياة. ويفيد سياق الآية تعلق النظام السياسي والتنظيمي لمؤسسات المجتمع الجاهلي بحركة اليهود ومشاريعهم الافتتانية الفاسقة التي حذر منها القرآن الكريم.

في حين بينت آية سورة الأحزاب -وفيها ذكر تبرج الجاهلية- ارتباط مصطلح الجاهلية بذلك البعد الاجتماعي والقيمي الذي يختزل كيان المرأة في تبرجها الجسدي، وما ينطوي عليه من انعكاسات سلبية يتحول معها النسيج الاجتماعي إلى نظام رجسي لا يقبل التعايش، وإنما يواجه بالتطهير التام وفق منظومة قيمية جديدة مرجعيتها الوحي، وتجسيداتها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "لما خرج النبي ﷺ إلى أحد رجع ناس ممن خرج معه. وكان أصحاب النبي ﷺ فرقتين: فرقة تقول نقاتلهم، وفرقة تقول: لا نقاتلهم، فنزلت: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ﴿٨٨﴾﴾ [النساء: ٨٨] وقال النبي ﷺ: "إنها طيبة تنفي الذنوب، كما تنفي النار خبث الفضة." انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: غزوة أحد، ج٤، ص١٤٨٨، حديث رقم: (٣٨٢٤). وفي كتاب: التفسير، باب: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾، ج٤، ص١٦٧٦، حديث رقم: (٤٣١٣).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الحج، باب: المدينة تنفي شرارها، ج٢، ص١٠٠٦، حديث رقم: (١٣٨٤).

وأخيراً أشارت آية الفتح -وفيها ذكر حمية الجاهلية- إلى طبيعة بنية الذهنية العقلية الجاهلية، والأسس التي تحكم العلاقات الاجتماعية بين أعضائها، القائمة على مبدأ العصبية والحمية، المجافية للموضوعية، والتجرد، والبراءة من الانتصار للنسب والدم والقرابة على حساب القيم والمبادئ.

إن هذه الآيات القرآنية تتحدث عن الجاهلية بوصفها نظاماً اجتماعياً قائماً بذاته، وبنية ثقافية، ومنظومة قيمية متساندة عبر تدابير وتنظيمات سياسية، وهو ما يجعلنا نفهم طبيعة البنيات الاجتماعية، والأطر المعرفية للمجتمع المكي قبل البعثة. فحمية الجاهلية هي تعبير عن بنية اجتماعية قائمة على الولاء القبلي، كما أنها تعبير عن نموذج معرفي لا يرى الحق خارج عصبيته، والنتيجة هي إغراق المجتمع في سلسلة من الحروب والصراعات أفقدته الانسجام والتماسك، -في مقابل إنزال الله تعالى سكينته على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين- وجعلته يخضع في تنظيماته الاقتصادية والسياسية للجماعة اليهودية المسيطرة، ولم يبق له من مجال للتحكم يظهر من خلاله سلطانه وجبروته سوى النساء؛ فكان الوأد،[1] والبغاء، وأشكال النكاح،[2] وأنظمة الزواج

---

(١) وأد العرب بناتهم دليل على جهلهم في زمن الجاهية، وقد روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ... قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام: ١٤٠]. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المناقب، باب: قصة زمزم وجهل العرب، ج٣، ص١٢٩٧، حديث رقم: (٣٣٣٤).

(٢) فعن عروة " أن عائشة أخبرته أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها، ثم ينكحها ونكاح آخر، كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها زوجها ولا يمسها حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح يسمى نكاح الاستبضاع ونكاح آخر، يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم فيصيبونها، فإذا حملت ووضعت ومر ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، فتسمي من أحبت باسمه، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل =

والقرابة والتبادل المجانبة للفطرة، وحرمان المرأة من الميراث... وهي كلها وجوه من أوجه التبرج النسائي الكاشفة لسوءة المجتمع الجاهلي والفاضحة لصورته الحقيقية التي يخفيها خلف مظاهر القوة الخادعة.

وهكذا يمكننا توصيف اللحظة التاريخية التي كان يعيشها العربي على أنها لحظة ثقافية مأزومة فقدت فيها الأشياء كينونتها وطاقاتها التسخيرية بسبب فراغ عالم الأفكار والدوران حول عالم الأشخاص، وقداسة الأشياء التي تحولت مع مرور الزمن إلى أوثان تعبد من دون الله. لقد فقد ذلك المجتمع شروط التنمية والعمران، فلم يعد مذكوراً لولا مجيء الوحي ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون: ٧١]. لكن فقد هذا المجتمع لشروط التنمية لا يتعارض أبداً مع ما كان يحمله العربي بوصفه فرداً لا بوصفه جماعة من مؤهلات واستعدادات فطرية خالصة لإقامة العمران، وهو ما ستعمل الرسالة الخاتمة على بعثه في نفس العربي في سياق الجماعة والأمة القطب.

ومما تجدر الإشارة إليه أن حال الأطر المعرفية المتحكمة في البناء الاجتماعي قبل البعثة تنتمي في حقيقة الأمر إلى مرحلة إنسان ماقبل الحضارة، أو ما قبل التحضر، أو ما قبل العمران، مما يعني امتلاك الإنسان العربي في مرحلة ما قبل البعثة النبوية لخصائص فطرية واستعدادات خاصة تؤهله لخوض غمار البناء العمراني مقابل الإنسان المتفسخ حضاريا. وقد تنبه إلى هذه الحقيقة مالك بن نبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبنى عليها الطيب برغوث فهمه لاختصاص قريش وإيثار الله تعالى لهم بالرسالة الخاتمة والبعثة

---

= ونكاح رابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا ينصبن على أبوابهن الرايات وتكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت جمعوا لها ودعوا لها القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط به ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك فلما بعث الله محمداً ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم." انظر:

- المرجع السابق، كتاب: النكاح، باب: من قال لا نكاح إلا بولي، ج٥، ص١٩٧٠، حديث رقم: (٤٨٣٤).

النبوية، فقال: "فالعرب رغم ما كان فاشياً فيهم من أمية وجهالة، وأخلاق مرذولة،... إلا أنهم في ميزان "السنن الحضارية" كانوا يتوفرون على ذخائر هائلة من الاستعدادات النفسية والعقلية، لإنجاز وثبة تاريخية حاسمة... فالعرب أمة سابقة على الحضارة، مازالت تحافظ على قواها المذخورة القابلة للتفجير والتسخير، في عمل حضاري جديد، ذي نفس طويل، وآفاق إنسانية، وامتدادات عالمية شاملة."[1]

فسنن الله تعالى النافذة، والمطردة، والثابتة، تقتضي أن يكون العربي مخصوصاً بمكارم الرسالة الخاتمة، ومؤهلاً لحمل مسؤولية تبليغها إلى العالم تأهيلاً فطرياً ونفسياً وذهنياً وبيانياً. وإلى هذا المعنى كانت إشارة القاسمي (توفي: ١٩١٤م) رَحِمَهُ ٱللَّهُ في محاسن التأويل، فقال: "وإنما أوثرت بعثته صلوات الله عليه في الأميين؛ لأنهم أحدّ الناس أذهاناً، وأقواهم جناناً، وأصفاهم فطرة، وأفصحهم بياناً، لم تفسد فطرتهم بغواشي المتحضرين، ولا بأفانين تلاعب أولئك المتمدنين، ولذا انقلبوا إلى الناس بعد الإسلام بعلم عظيم، وحكمة باهرة، وسياسة عادلة، قادوا بها معظم الأمم، ودوخوا بها أعظم الممالك. وإيثار البعثة فيهم -بمعنى إظهارها فيهم- لا ينافي عموم الرسالة، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقوله: ﴿... لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ٢٠]. وهو ظاهر."[2]

وفي بيانه للأطر الذهنية المكونة لنمط التفكير لدى عربي ما قبل الإسلام قدم القرآن الكريم إشارات واضحة، لما كان عليه ذلك العربي من تقديس للآباء، وتقليد لهم في وثنيتهم البلهاء، وتعصبهم المقيت، فبكتهم أيما تبكيت، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٦٩]، وكشف مدى تعطيلهم لوسائل الإدراك ومصادر

---

(١) برغوث، **منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية**، مرجع سابق، ص١٨٧.

(٢) القاسمي، جمال الدين محمد بن محمد بن سعيد. **محاسن التأويل**، بيروت: دار الفكر، ط٢، (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، ج٩، ص١٥٨.

المعرفة: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٠]، فهم بذلك لا يهتدون إلى الحق ولا يعقلون منه شيئا. ولعل طبيعة البيئة العربية وما صاحبها من تعطيل العربي لوسائل التأمل والتعقل -إلا ماكان من بعض بقايا آثار الحنيفية- حولت المجتمع إلى بنية اجتماعية سكونية تراتبية يلفها الفراغ لفاً، "وقد دفعهم الفراغ عن جد الحياة إلى التفنن في وثنيتهم البلهاء، فنوعوها وعددوا آلهتها واتخذوا لها الأنصاب والتماثيل والأصنام والأوثان، وبنوا لها البيوت والمتعبدات حتى أصبح لكل قبيلة صنم أو تمثال في بيت خاص به، تتعبد له، وتذبح عنده القرابين، وتطوف به، وتتقرب إليه بصدقاتها ونذورها."[1]

ولا ننكر ما كان للعربي قبل الإسلام من أخلاق وقيم افتخر بها في حله وترحاله، مما هو مبثوث في مصادر التاريخ، وذكرت جزءاً منه كتب السنة والسيرة النبوية. لكن الاستقراء يقضي بأن بعض الأشراف والسادات هم الذين اشتهرت عنهم تلك القيم والمبادئ ولم تكن تياراً اجتماعياً يسري في المجتمع، ولعل أوضح دليل على قولنا هذا هو رد الفعل الذي جوبهت به دعوة النبي ﷺ بمكة ممن كانوا يعدّون أنفسهم حماة الأخلاق والقيم الإنسانية. إن كثيراً من قيم عربي ماقبل الإسلام كانت تحكمها العصبية القبلية والمصلحة المادية والسلطان الأرضي، ولذلك اعترضوا على الرسالة الخاتمة بقولهم ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص: ٥٧]، قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد حصل في خلال الرد لقولهم إدماج للامتنان عليهم بهذه النعمة ليحصل لهم وازعان عن الكفر بالنعم: وازع إبطال معذرتهم عن الكفر، ووازع التذكير بنعمة المكفور به. وموقع الاستدراك في قوله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ أنه متعلق بالكلام المسوق مساق الرد على قولهم ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ ﴾ إذ التقدير: أن تلك نعمة ربانية، ولكن أكثرهم لا علم لهم، لذلك لم يتفطنوا إلى كنه هذه

(١) عرجون، **محمد رسول الله ﷺ: منهج ورسالة، بحث وتحقيق**، مرجع سابق، ج١، ص٤٥.

النعمة، فحسبوا أن الإسلام مفض إلى اعتداء العرب عليهم، ظناً بأن حرمتهم بين العرب مزية ونعمة أسداها إليهم قبائل العرب. وفعل ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ منزل منزلة اللازم فلا يقدر له مفعول؛ أي ليسوا ذوي علم ونظر، بل هم جهلة لا يتدبرون الأحوال. ونفى العلم عن أكثرهم؛ لأن بعضهم أصحاب رأي، فلو نظروا وتدبروا لما قالوا مقالتهم تلك."[1]

لم تكن القبيلة لدى العربي مجرد وحدة اجتماعية، وإنما كانت أيضاً إطاراً ثقافياً وعقدياً واقتصادياً وسياسياً. فالعربي لا يستوعب ذاته إلا داخل هذه القبيلة، ولا يوالي أو يعادي إلا من خلالها، ولا تتجاوز تطلعاته حدود قبيلته إلى آفاق أبعد وأرحب. لم يكن العربي يرى خارج حدود قبيلته إلا نادراً، ولم يكن قادراً على التحرك صوب الآخر المتاخم على حدوده من أهل الفرس والروم ما دام محافظاً على وجوده التاريخي، ولذلك لم يفهم العربي وهو مكبل بقيود جاهليته، ومحاصر داخل منظومته الاجتماعية والقيمية الأبعاد العالمية للرسالة الخاتمة إلا حين تخلص من هذه القيود، وفك عن نفسه الحصار الاجتماعي والقيمي الذي ضربه على نفسه سنين عددا. وهكذا لم يستسغ بنو شيبان حين قال لهم رسول الله ﷺ "مَا أَسَأْتُمْ فِي الرَّدِّ إِذْ أَفْصَحْتُمْ بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ دِينَ الله لَنْ يَنْصُرَهُ إِلا مَنْ أَحَاطَهُ الله مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ، أَرَأَيْتُمْ إِنْ لَمْ تَلْبَثُوا إِلا قَلِيلاً حَتَّى يُوَرِّثَكُمُ الله أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَيُفْرِشَكُمْ نِسَاءَهُمْ، أَتُسَبِّحُونَ الله وَتُقَدِّسُونَهُ؟"[2] قال الصادق عرجون رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد أراد النبي ﷺ أن يعالج بحكمته مرض الخوف الذي ملأ صدور زعماء شيبان من كسرى وعتوه وجبروت قوته الحربية، ويهون عليهم شأن هذه القوة التي يرهبونها، ويخافون سطوتها وبطشها، لينزع من قلوبهم المهابة منهم، فهي قوة منهارة أمام قوة الإيمان بعقيدة الحق... ولعل هؤلاء العرب الذين استضعفوا أنفسهم أمام قوة الأكاسرة سيكون لهم شرك وإسهام في كسر

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢١، ص١٥١-١٥٢.

(٢) البيهقي، **دلائل النبوة ومعرفة أحوال الشريعة**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٢٦.

حدة هذه القوة المادية الباطشة بزمجرتها، الجوفاء في حقيقتها."[1]

كما أن الرسالة الخاتمة كان أمامها تحد صعب يتعلق بتغيير ما بالأنفس أولاً، وإعادة تشكيل وجدان العربي، وقلبه، وعقله، ومشاعره بما يخدم وظيفة خير أمة أخرجت للناس. لقد كانت القبيلة، إذن هي الدم والقرابة والدين والمعتقد والاجتماع والحياة، لم يكن العربي يفكك انتماءاته وولاءاته داخل الوحدة الكلية الجامعة/ القبيلة، ولعل البيئة العربية بظروفها الطبيعية أسهمت بشكل بارز في هذا الوضع الاجتماعي، وهو ما سيواجهه الرسول ﷺ خلال مراحل الدعوة، والإصلاح والبناء سواء في العهد المكي، وما تعلق بالمعاندة والمكابرة الجاهلية للعصبية القبلية، وكيف لم ينزل الوحي على رجل من القريتين عظيم،[2] أم في العهد المدني وما قامت به حركة النفاق وحركة المكر اليهودي من محاولات لإحياء قيم العصبية وإثارة الفتنة بين الصحابة.

وتقدم سورة قريش نموذجاً تاريخياً للكيان الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للمجتمع المكي. يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ۝٤﴾ [قريش: ١-٤].

فالإيلاف[3] الذي تشير إليه السورة سواء فهم منه الإيلاف الاجتماعي؛ أي الالتئام والاجتماع والتماسك الاجتماعي، أم الإيلاف السياسي والاقتصادي؛ أي تلك

---

(١) عرجون، **محمد رسول الله** ﷺ: **منهج ورسالة، بحث وتحقيق**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٩٠.

(٢) قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢]. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: قال الوليد بن المغيرة: لو كان ما يقول محمد حقاً، أنزل علي هذا القرآن، أو على عروة بن مسعود الثقفي، فنزلت ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف: ٣١].

(٣) من معاني الإيلاف: اجتماع مع التئام، وبمعنى الاتصال وعدم الانقطاع. انظر:

- الراغب الأصفهاني، **مفردات القرآن**، مرجع سابق، ص٢٠.
- ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، مادة (ألف)، ص١٣٣.

العهود والمواثيق التي كانت بين قريش وملوك ذلك الزمان، أوما كان يتعهد به هاشم من منح مبلغ من أموال التجارة إلى رؤساء القبائل واستفادته هو أيضاً مقابل إراحته إياهم من عناء الرحلة ومشقتها،[1] هو تعبير عن طبيعة البناء الاجتماعي وما ارتبط به من تحقيق للأمن الاقتصادي المعيشي ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾، والأمن النفسي والسياسي والعسكري ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾. فمصالح قريش المادية، واستقرارها الاجتماعي والسياسي الذي قاد إليه ذلك الإيلاف مرده إلى قداسة البيت الحرام، ورمزيته الدينية الدالة على التوحيد الذي جاءت به رسالة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

لكن لما تنكبت قريش واستنكفت عن عبادة ربها صارت مفتقرة إلى مبرر استمرار الإيلاف، وصارت عاجزة عن الدفع بحركة التاريخ أمام التحولات الدولية المتاخمة على حدود شبه الجزيرة العربية حيث أصبح مركز اهتمامها هو الربح والمصلحة المادية. وهذا ما أشار إليه القرآن في آية أخرى، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [النحل: ١١٢-١١٤]. ومكة قرية، بل هي أم القرى، رزق الله أهلها أمناً وطمأنينة، وأكرمهم برغد العيش يجبى إليهم من كل مكان، فلما لم تقابل قريش نعمة الله بالشكر، وأعرضت عن رسالة خاتم النبيئين، وواجهته بشتى صنوف التكذيب جاء وعد الله وسنته التي لا تتخلف، فأبدل أمنهم الاقتصادي جوعاً فأصابتهم سني يوسف وشد الله عليهم وطأته، واستجاب الله لدعاء نبيه لما كذبوه واستعصوا عليه، كما أبدل اطمئنانهم النفسي والاجتماعي خوفاً وهلعاً مثلما حصل لهم أثناء مواجهاتهم العسكرية لرسول الله ﷺ.

---

(١) أشارت كتب المغازي والسير والتفسير والتاريخ إلى هذا الإيلاف مع اختلاف في تحديد معنى الإيلاف، هل هو التئام قريش واجتماعها وجعلها هاشماً هو من يتولى ذلك في رحلتي الشتاء والصيف، أم هو تلك العهود السياسية التي كانت بين قريش والملوك.

## ثالثاً: في قيمة ومركزية التحول الجذري الذي أحدثه الفقه السنني النبوي

إن من يتأمل الإنجاز العمراني النبوي الذي شكل لحظة تاريخية فارقة، لا يمكنه إلا أن يدرك اعتلاء رسول الله ﷺ ذروة سنام الفقه السنني تمكناً وإتقاناً، وأنه -بلاريب- النموذج الكامل في مراعاة سنن الله تعالى في العمران، والاجتماع البشري.

إن هذا الإنجاز لم يكن عبثاً، كما أن الله تعالى لم يتم لنبيه ﷺ هذا الإنجاز؛ لأنه مجرد نبي من أنبيائه، وهو قادر على ذلك -فالله تعالى خالق السنن ومدبرها، فهو يحكمها ولا تحكمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وإنما تم وفق سنن العمران البشري وحسب أقدار الله تعالى في النصر والتمكين، وشواهد كثيرة من السيرة النبوية تنهض لتسند ما ذكرته، وآيات القرآن الكريم خلدت ذلك كما هو الأمر في الآيات التي صورت غزوة بدر وأحد والأحزاب وحنين وغير ذلك. "فمن يدرس مسيرة الحركة النبوية من حيث منجزاتها، يرى أنها استطاعت في زمن قياسي، أن تفكك المجتمع التقليدي الموطد البنيان، وأن تعيد استيعابه العقدي والفكري والسلوكي والاجتماعي.. على طريق الإسلامية الوليدة، بل وأن تفكك حركة الدعوة فيما بعد حضارات بأكملها، في زمن قياسي كذلك، ظل مثار اندهاش المؤرخين والمفكرين حتى الآن! إذ يتساءلون كيف تستطيع حركة في الأرض معزولة، محدودة الخبرة والإمكانات، ومجردة من أي إسناد من القوى الحضارية الكبرى في عصرها، أن تفكك مجتمعاً محلياً وتعيد صياغته، ويمتد ذلك التفكيك وإعادة الاستيعاب بسرعة مدهشة، ليطال حضارتين كبيرتين معاصرتين لها؟"[1]

إن فهم هذا التحول الجذري الذي أحدثته الحركة النبوية على المستوى الفردي والجماعي، بأبعاد عقدية وفكرية واجتماعية وحضارية شاملة، داخل المجتمع العربي وخارج حدود الجزيرة العربية وبنيتها القبلية، بما يحمله هذا "الخارج" من عالمية هذه الحركة وطابعها الرسالي الإنساني الكوني، لا يتم حقيقة إلا من خلال الكشف عن

(١) برغوث، **الفعالية الحضارية والثقافة السننية**، مرجع سابق، ص٤٩.

ذلك الفقه السنني العمراني في الرسالة الخاتمة، كما تجلى في منهج النبي ﷺ وحركته في البناء والإصلاح والدعوة والدولة، وهو فقه سنني يشمل دائرتين كبيرتين هما: سنن الله العامة وسنن الله الخاصة؛ فالأولى هي التي أجرى الله تعالى عليها غالب فعله ومشيئته، ويدركها الناس بعقولهم، وينفذون إليها بعلومهم، وتتعلق باستجماع شرائط النصر دون اعتبار لإيمان مؤمن أو كفر كافر. أما الثانية فهي إمدادات الله تعالى أجراها بمحض مشيئته المطلقة تأييداً لعباده المؤمنين وتثبيتاً لهم. فطبيعة التحول العظيم الذي أحدثه رسول الله ﷺ لا يمكن فهمه إلا من خلال سنن الله العامة والخاصة، لكن يبدو أن "هذا التحول أمر لا يتمشى في ظاهره مع مقتضيات السنن العامة، فهو مظنة الإنكار لمن لم يتعمق التفقه في سنن الله، والسنن الإلهية الخاصة كالسنن العامة لها قدرها ومكانها في تسيير الحياة وتحركات العناصر الكونية، كما يقرر ذلك القرآن العظيم"[1] ولا شك أن تقديم تفسيرات ومقاربات لإدراك عمق هذا التحول لا تستقيم منهجياً وعلمياً، ولا يمكن أن تكون منسجمة مع الحقيقة إلا من خلال معرفة شخصية محمد ﷺ قبل البعثة، وكيف تشكلت هذه الشخصية داخل الفضاء العربي القبلي الوثني وانفلتت من تأثيراته، وهي معرفة لا تهتدي إليها تلك التفسيرات أو المقاربات حينما تقع ضحية السقوط في إضفاء الطابع الغيبي والغرائبي على هذه الشخصية حتى تصير عصية على الفهم فتنزع عن النبي ﷺ بشريته، وتلغي كل جهد ذاتي واقتدار عقلي ونفسي وروحي لهذه الشخصية النبوية، أو تغالي في تضخيم هذا الطابع البشري، فتعمد إلى إقصاء الأبعاد الغيبية التي تدخلت في صنع هذه الشخصية وإعدادها لتحمل الرسالة الخاتمة، ويتم إفراغ تلك الأحداث والوقائع في نظريات ونماذج تفسيرية تتعلق بعلوم الإنسان (علم النفس، وعلم الاجتماع تحديداً) على أن تلك النظريات النفسية والاجتماعية تظل نسبية ومأزومة وقاصرة عن الإحاطة الشاملة بشخصية رسول الله ﷺ إذا لم تستحضر نصوص الوحي قرآناً وسنة في ذلك.

---

(١) عرجون، **محمد رسول الله ﷺ: منهج ورسالة، بحث وتحقيق**، مرجع سابق، ج٣، ص٣٧٧.

"فليس من الإنصاف التاريخي أن تهدر هذه الكثرة الغامرة من الروايات في هذا الجانب من السيرة النبوية تحت تأثير الإيهام بمعروف العقول وقضايا العلم وحكم المنطق ومتعارف سنن الحياة."[1] لكن حينما نلج عالم شخصيته ﷺ موقنين ببشريته وما يترتب عنها من إمكانيات الفهم والتفسير والاقتداء -إذ لو كان غير ذلك لبطلت واستحالت تلك الإمكانيات- وموقنين أيضاً بصبغة الله تعالى التي امتدت إلى هذه الشخصية لتؤدبها، وتهيئها، ويصنعها الله تعالى على عينه، فتتغلب على النسبي في حياة البشر دون أن تتعالى فتنفصل عن همومهم وطبائعهم الإنسانية. بهذا المنطلق المعرفي يمكننا معرفة شخصية محمد ﷺ قبل البعثة ونمط حياتها، ومستوى علاقاتها الاجتماعية واختياراتها الفكرية والقيمية، ونعلم حينها أننا أمام نفس عظيمة وشخصية أدركت المنتهى في الهمة والعزم وندرك يقيناً جازماً قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

## ١- المفردات الست المفتاح لفهم شخصية النبي ﷺ قبل المبعث:

نرى أن تحليل مفردات: اليتم (الحقل الأسري)، والصحراء (الفضاء المادي الطبيعي)، والرعي (حقل التجربة الأولى ومرحلة مرور وعبور من البيت إلى المجتمع)، والتجارة (حقل البنيات الاقتصادية)، الزواج (شبكة العلاقات الاجتماعية)، والإسهام في أعمال ذات قيمة اجتماعية وعمرانية عالية (حقل البناء الاجتماعي العمراني)، وغار حراء (لحظة بلوغ الرشد)، هو مدخل أولي لتبين ذلك الأساس الذي سيقوم عليه ذلك التحول الجذري -تصوراً وممارسة- الذي أحدثه الفقه السنني النبوي.

### أ- اليتم:

أولى هذه المفردات هو اليتم، ولليتم معاناة ومرارة، وهو لمن شاء القدر أن يعتلي ذرى أهل العزم من الرسل، ليغير مجرى التاريخ عنصر قوة بعد تحقق ذلك الإيواء

(١) المرجع السابق، ج١، ص١٣٠.

الرباني وهو قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى: ٦]. قال ابن عاشور: "وقد أطلق الإِيواء على الكفالة وكفاية الحاجة مجازاً أو استعارة، فالمعنى أنشأك على كمال الإِدراك والاستقامة وكنتَ على تربية كاملة مع أن شأن الأيتام أن ينشأوا على نقائص؛ لأنهم لا يجدون من يُعنى بتهذيبهم وتعهدِ أحوالهم الخُلقية"[(١)] فلم ينشأ ﷺ في حضن أب يراعي أعراف مجتمعه في تنميط شخصية ابنه، واستمد من أمه ما يحتاجه من رقة وحنان وشفقة يقوي بها نفسه، ويستعين بها على أداء الرسالة التي سيتحملها. وعندما توفيت في رحلة العودة من المدينة (يثرب وقتها) وهو ابن ست سنين[(٢)] كان عَلَيْهِ السَّلَامُ قد تحقق له سفران: سفر تاريخي محدود بحدود الزمن المادي، وسفر نفسي واجتماعي بمسافات فلكية اجتاز فيها الصبي كل حواجز الزمان والمكان برفقة أم أيمن. وأم أيمن حبشية،[(٣)] ولا شك أنها كانت تحدث الطفل بأحاديث أهل مكة والمدينة والحبشة، ويختزن ذلك الطفل ما يقع على سمعه من كلمات أم أيمن، وما يراه في الطريق من آيات الله في الكون. وفتحت له كفالة جده عبد المطلب باباً آخر من المعرفة؛ إنها حقيقة قريش ونمط تفكيرها، فعبد المطلب سيد من ساداتها وهو رافع ستائر الكعبة وساقي الحجيج وحارس أوثانها.

**ب- الصحراء:**

ثاني هذه المفردات هو الصحراء. ولئن ولد محمد ﷺ بمكة -وهي مدينة وليست

---

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٣١، ص٣٩٩.

(٢) وقد صرح في هذه الحديث ابن إسحاق بالتحديث ورجال الحديث ثقات إلا أنه مرسل. انظر:

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص١٦٨.

(٣) قال ابن شهاب: "وكان من شأن أم أيمن، أم أسامة بن زيد، أنها كانت وصيفة لعبد الله بن عبد المطلب، وكانت من الحبشة، فلما ولدت آمنة رسول الله ﷺ، بعدما توفي أبوه، فكانت أم أيمن تحضنه، حتى كبر رسول الله ﷺ فأعتقها، ثم أنكحها زيد بن حارثة، ثم توفيت بعدما توفي رسول الله ﷺ بخمسة أشهر." انظر:

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد والسير، باب: رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم من الشجر والثمر حين استغنوا عنها بالفتوح، ج٣، ص١٣٩١، حديث رقم: (١٧٧١).

بادية، وتمنعها الجبال من رحابة الأفق- فإن نشأته الطفولية الأولى ستتم في ديار بني سعد حيث امتداد الصحراء، وهنا سيقرأ محمد ﷺ كتاب الوجود، ويكتشف عظمة وسر الخلق الإلهي، ويستلهم معالم حركة الحياة. وسيتحرر من ضيق النظر ورتابة الحياة، وتراتبية النظام الاجتماعي المكي. وستبدأ لحظة الرقي في الكمالات بعد حادثة شق الصدر.[1] ومن الصحراء سينطلق الإصلاح والبناء نحو عواصم الحضارات.[2]

**ت- الرعي:**

ثالث هذه المفردات هو الرعي. فلم تنقطع صلة محمد ﷺ بالصحراء بعد أوبته من ديار بني سعد، فما زالت الصحراء حبلى بالمعاني التي يحتاج إليها، وهو لم يستكمل بعد تكوينه الوجداني والنفسي، لكن هذه المرة سيعبر إلى آفاق الصحراء من خلال رعي الغنم،[3] أول لحظة من لحظات عبوره ﷺ من البيت إلى الانخراط الاجتماعي

---

(١) أخرج الحادثة غير واحد. انظر:

- المرجع السابق، كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ، ج١، ص١٤٥، حديث رقم: (١٦٢).

(٢) ولعلها من سنن العمران أن تكون البادية والصحراء عبر تاريخ الأمة منطلقاً لتخريج وتأهيل قيادات الإصلاح والتجديد، وليست هذه دعوة إلى البداوة وإعراض عن الفقه الشمولي الذي يقارع العلمانية، ويكشف جذور الفساد، ويؤسس معالم التنمية الحضارية الشاملة، وإنما هي لطيفة ونكتة يشهد بصدقها التاريخ وتنهض لدعمها تجارب وخبرات نريد من خلالها تنبيه أصحاب مشاريع الشهود الحضاري أن تكون لهم سياحات ووقفات وخلوات في الصحاري والبوادي تمكنهم من تجديد العزمات وصقل الفكر الحر، ويتحققون من صدق وجهتهم ونبيل قصدهم.

(٣) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ فقال: نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة." ومن حديث جابر "فقال: وكنت ترعى الغنم يارسول الله؟ قال: نعم، وهل من نبي إلا قد رعاها." انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الإجارة، باب: رعي الغنم على قراريط، ج٢، ص٧٨٩، حديث رقم: (٢١٤٣). وكتاب: الأطعمة، باب: الكباث وهو ورق الأراك، ج٥، ص٢٠٧٧، حديث رقم: (٥١٣٨).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الأشربة، باب: فضيلة الأسود من الكباث، ج٣، ص١٦٢١، حديث رقم: (٢٠٥٠).

المبكر. وسيظل يتردد على مكة، وتتسع الفجوة بين تفكيره وتفكير أهل مكة.

ولرعي الغنم أسرار تكشف عن سنن الله في الخلق؛ ففيه يتحقق تعلم قيم المسؤولية والمبادرة إلى قيادة الجماعة والتضحية من أجلها، وتحمل المعاناة ومكابدة الجوع والمخاطر من أجل راحتها. خلال عملية الرعي ينظر محمد ﷺ أن قيادة القطيع وحمايته تخضع لسنن الغفلة عنها تعني الانكسار والسقوط فريسة للذئاب. وقد دخل النبي ﷺ خلال رعيه للغنم في كمالات جديدة وفرتها له أجواء العزلة والخلوة، والانصراف عن المشوشات الاجتماعية، لعل أبرز تلك الكمالات استغناؤه عما في أيدي الناس، وتحقيق استقلالية الذات وهو يقود الغنم وحيداً.

وقد نقل ابن حجر قول العلماء في "الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة؛ أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم؛ ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى ونقلها من مسرح إلى مسرح ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها، أحسنوا التعاهد لها فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم، وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها؛ ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقياداً من غيرها. وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله ما كان عليه من عظيم التواضع لربه والتصريح بمنته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء."[1]

(١) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٤، ص٤٤١-٤٤٢.

**ث- التجارة:**

رابع هذه المفردات هو التجارة. فقد دونت كتب السير والمغازي أن النبي ﷺ خرج في قافلة تجارية مكية[1] متجهة إلى الشام مع عمه أبي طالب، وتاجر بعد ذلك في مال خديجة[2] لما رأته من صدق حديثه وأمانة عمله، ومن خلال هذه التجارة اكتشف

---

(١) رواه الترمذي في سننه، وقال: "حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه." والحاكم في مستدركه، وقال: "صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه." وتعقبه الألباني بقوله: "فيه عقبة المجدر، ولم يخرج له الشيخان، وهو صدوق، فالإسناد جيد." وأورده ابن إسحاق في سيرته بصيغة التمريض "يزعمون." وفيه ذكر لأبي بكر وبلال، فلذلك تكلم الحافظ الذهبي في متن الحديث ونبه على نكارته، كما أشار قبله ابن سيد إلى نكارة إرسال أبي بكر مع النبي ﷺ بلالاً. وبين ابن حجر أن ذلك كان إدراجاً ووهماً من بعض الرواة، لكن سند الرواية صحيح، فليس في إسناده كما قال ابن سيد الناس إلا من خرج له في الصحيح، وقد صحح إسناد رواية الترمذي غير واحد؛ منهم الألباني حيث قال: "وإسناده صحيح، كما قال الجزري. قال: وذكر أبي بكر وبلال فيه غير محفوظ." انظر:

- الترمذي، **الجامع الكبير «سنن الترمذي»**، مرجع سابق، كتاب: المناقب، باب: ما جاء في بدء نبوة النبي ﷺ، ج٥، ص٥٩٠، حديث رقم: (٣٦٢٠).
- النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، مرجع سابق، مرجع سابق، ج٢، ص٦١٥.
- الألباني. **صحيح السيرة النبوية**، مرجع سابق، ص٣١.
- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي، **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، (معه السيرة النبوية لابن هشام)، تحقيق: مجدي بن منصور الشوري، بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت.)، ج١، ص٣١٣-٣١٦.
- ابن سيد الناس، أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد اليعمري الربعي. **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، تحقيق: محمد العيد الخطراوي ومحيي الدين مستو، المدينة المنورة وبيروت: دار التراث ودار ابن كثير، ط١، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، ج١، ص١٠٨.
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد. **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م)، ج١، ص١٧٧.
- الألباني، محمد ناصر الدين. **دفاع عن الحديث النبوي والسيرة**، دمشق: مؤسسة ومكتبة الخافقين، ١٩٧٧م، ص٧٠.

(٢) عن جابر رضي الله عنه قال: "استأجرت خديجة رضوان الله عليها رسول الله ﷺ سفرتين إلى جرش، كل سفرة بقلوص." أخرجه ابن حبان، والحاكم في المستدرك، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، لكن ضعفه الألباني. وذكر ابن إسحاق اشتغال رسول الله ﷺ في مال خديجة. انظر: =

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بنية قريش الاقتصادية، والقيم التي تقوم عليها فدخل في تجربة الثبات على المبدأ رغم مغريات المادة. كما أمكنته التجارة من معرفة أعراف وقيم أقوام ومجتمعات متعددة، ووسعت من آفاق تفكيره خارج حدود مكة وهو ما سيعينه على التحقق بعالمية الرسالة.

**جـ- الزواج:**

خامس هذه المفردات هو الزواج، فقد تزوج ﷺ من خديجة[1] رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا لما لمسته فيه من سمو الأخلاق، وعلو الهمة، وصفاء السريرة، وقوة الفكر. وتجربة الزواج تجربة فارقة في حياة الإنسان عموماً، وكذلك كان مع رسول الله ﷺ؛ إذ سيدرك أبعاد شبكة العلاقات الاجتماعية للمجتمع المكي في أعلى درجة من تراتبيته الاجتماعية حيث كانت خديجة ذات ثروة وجاه، وسيلتقي مع الثروة دون أن يسعى إليها أو يركن إليها بعد زواجه، وإنما ليدرك حقيقتها، ويغوص في أعماق تأثيراتها، ويفهم سنن الله فيها فيتهيأ لمعالجة ما يفضي إلى سقوط العمران، وانهيار الأمة من مدخل الثروة.

---

= - البستي، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي. **الثقات**، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، بيروت: دار الفكر، ط١، (١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م)، ج٨، ص٣١٧.

- النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، مرجع سابق، ج٣، ص١٨٢.

- الألباني، **سلسلة الأحاديث الضعيفة**، مرجع سابق، ج٣، ص٦٧٤، حديث رقم١٤٨٣.

- السهيلي، **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، مرجع سابق، ج١، ص٣٢٢-٣٢٣.

(١) الروايات التي ذكرت تفاصيل زواجه ﷺ بخديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ضعيفة، لكن دلت أحاديث صحيحة على زواج النبي ﷺ بخديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وثنائه عليها، وحبه لها، وتطمينها له عند نزول الوحي، فعظم قدرها عنده حيث آمنت به؛ إذ كفر به الناس، وواسته بمالها؛ إذ حرمه الناس، فلم يتزوج عليها حتى ماتت، وأنجبت له ولدين وأربع بنات، ولم يقرئ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أحداً من خلقه من بعد أنبيائه السلام ما عدا خديجة، وكل ذلك ثابت في الصحيحين وغيرهما. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: مناقب الأنصار، باب: تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، ج٣، ص١٣٨٣، حديث رقم: (٣٦٠٤-٣٦١٠).

**حـ- الإسهام في أعمال ذات قيمة اجتماعية وعمرانية عالية:**

سادس هذه المفردات هو إسهامه ﷺ في أعمال ذات قيمة اجتماعية وعمرانية عالية. إن نسب النبي ﷺ وما مثلته شخصيته من مثل أعلى لكمال الشباب ومكارم الأخلاق جبلة وكسباً، شمولاً وتكافؤاً تسامى بها عن دنس الجاهلية؛ فكان أحسن القوم خلقاً، وأشرفهم حسباً ونسباً، وأصدقهم حديثاً، وأكملهم مروءة.[1] كل ذلك مكنه ﷺ من الانخراط والإسهام بفعالية وإيجابية، وتميز في أعمال ذات قيمة اجتماعية وعمرانية عالية؛ فقد شهد الحرب -شهود معاينة لا شهود حضور ومشاركة[2]- وما يحصل فيها من أمور الكر والفر، والنصر والهزيمة، كما شهد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ[3] حلف الفضول -وهو المراد في الحديث بحلف المطيبين- وكان بعد حرب الفجار،[4] وهو

---

(١) عند ابن إسحاق "فشب رسول الله ﷺ، والله تعالى يكلؤه، ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية، لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقاً وأكرمهم حسباً وأحسنهم جواراً وأعظمهم حلماً وأصدقهم حديثاً وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزهاً وتكرماً، حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة." انظر:

- السهيلي، **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، مرجع سابق، ج١، ص٣١٧.

(٢) لم يشهد ﷺ حرب الفجار، والحديث الذي يذكره أهل السير"كنت أنبل على أعمامي"، كل طرقه مدارها على محمد بن عمر الواقدي، والواقدي كما قال ابن حجر: "متروك مع سعة علمه." انظر:

- ابن حجر العسقلاني، **تقريب التهذيب**، مرجع سابق، ص٤٩٨، ترجمة رقم: (٦١٦١).

(٣) الظاهر أن سنه ﷺ كانت عشرين سنة أخذاً بالروايات التي تقول أن بداءة معاينة الرسول ﷺ في حرب الفجار في سن خمس عشرة سنة، حيث كانت نهايتها بالصلح ودامت خمس سنين، وكان حلف الفضول بعدها بمدة يسيرة على ما ذكره غير واحد من أهل السير والمغازي، فتكون سنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عشرين سنة. وإذا كنا لم نأخذ بهذه الروايات الضعيفة في إثبات مشاركته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في هذه الحرب لمعارضتها مع ما ظهر من شخصيته وما يهيؤه له ربه من القيام بمهمة تبليغ الرسالة، فلم يمنعنا ذلك من الأخذ بها لبيان سنه وقت حضور حلف الفضول؛ إذ لا يترتب على هذا الأمر ما يترتب عن الأول، والله أعلم. انظر:

- ابن سيد الناس، **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، مرجع سابق، ج١، ص١١٤.

(٤) الفجار بكسر الفاء بمعنى: "المفاجرة... وذلك أنه كان قتالاً في الشهر الحرام، ففجروا فيه جميعاً... آخرها فجار البراض المذكور في السيرة، وكان لكنانة ولقيس فيه أربعة أيام." قال ابن إسحاق: "هاجت =

أكرم حلف سمع به، وأشرفه في العرب، لما فيه من التناصر والأخذ على يد الظالم. فمن حديث عبد الرحمن بن عوف قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: "شهدت حلف المطيبين[1] مع عمومتي وأنا غلام، فما أحب أن لي حمر النعم، وأني أنكثه"[2] وعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ، قَالَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ الْمُهَاجِرِ بْنِ قُنْفُذٍ، عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ عَوْفٍ الزهري يقول، قَالَ رَسُولَ الله ﷺ: "لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ الله بْنِ جدْعَانَ حِلْفاً، مَا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الإِسْلامِ لأَجَبْتُ"[3] ومقصد هذا الحلف هو التَّحالف على التَنَاصر، وَالأخذ للمظلوم من الظالم، والذي يهمنا في سياق بحثنا هو أنه ما كان باستطاعة شاب أن يحضر مثل هذا الحلف وغيره من الأحلاف -وهو لم يتجاوز الأربعين- إلا إذا قوي عزمه، وظهرت حكمته، وحسن رأيه، ولذلك حظي ﷺ بشرف حضور حلف الفضول، وقد مكنه هذا الحضور من رؤية عشائر قريش مجتمعة وهي تتحاور، وتتحاجج، وتتناصر، وتتداول فيما بينها الرأي، ولا شك أن هذا

---

= حرب الفجار ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة، وإنما سمي يوم الفجار، بما استحل هذان الحيان: كنانة وقيس عيلان فيه من المحارم بينهم." انظر:

- السهيلي، **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، مرجع سابق، ج١، ص٣١٩-٣٢١.

(١) سمي حلف الفضول بحلف المطيبين لحضور نفس العشائر في الحلفين معاً، وقد تقدم زمن حلف المطيبين قبل ولادته ﷺ، فيكون حضوره في حلف الفضول وتحديداً في دار عبد الله بن جدعان لا سيّما أن روايات أخرى تؤكد عدم شهوده ﷺ مع المشركين أكثر من حلف واحد. انظر:

- العمري، **السيرة النبوية الصحيحة: محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص١١٢.

- الألباني، **صحيح السيرة النبوية**، مرجع سابق، ص٣٥-٣٦.

(٢) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٣، ص١٩٣، حديث رقم: (١٦٥٥).

(٣) أخرجه ابن إسحاق في سيرته، وقد صرح فيه بالتحديث فانتفت شبهة التدليس التي رمي بها، فهو حسن، إلا أنه مرسل، وأخرجه الحافظ البيهقي في سننه الكبرى، وله شواهد تقويه. انظر:

- السهيلي، **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، مرجع سابق، ج١، ص٢٤٥-٢٤٦.

- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين. **سنن البيهقي الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م)، ج٦، ص٣٦٧، حديث رقم: (١٢٨٥٩).

سيسهم في صقل مهاراته ﷺ في الحوار والتفاوض، كما سيقربه أكثر من فهم مكونات البناء الاجتماعي القرشي.

كما حضر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بناء قريش للكعبة وكان ينقل معهم الحجارة حين بلغ خمساً وثلاثين سنة على أشهر الأقوال، فمن حديث جابر بن عَبْدِ الله، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ "كَانَ يَنْقُلُ مَعَهُمُ الْحِجَارَةَ لِلْكَعْبَةِ، وَعَلَيْهِ إِزَارٌ، فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ عَمُّهُ: يَا ابْنَ أَخِي لَوْ حَلَلْتَ إِزَارَكَ فَجَعَلْتَ عَلَى مَنْكِبِكَ دُونَ الْحِجَارَةِ، قَالَ: فَحَلَّهُ فَجَعَلَهُ عَلَى مَنْكِبِهِ، فَسَقَطَ مَغْشِيّاً عَلَيْهِ، فَمَا رُؤِيَ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ عُرْيَاناً"[1] ولما وصلوا لمحل الحجر الأسود اختلفوا فيمن يضعه حتى اختصموا فيه، ورضوا بعد ذلك بحكم يحكم بينهم وجعلوه أول داخل عليهم، فكان الأمين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "لَمَّا أَرَادُوا أَنْ يَرْفَعُوا الْحَجَرَ الأَسْوَدَ اخْتَصَمُوا فِيهِ، فَقَالُوا: نُحَكِّمُ بَيْنَنَا أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ هَذِهِ السِّكَّةِ، قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَوَّلَ مَنْ خَرَجَ عَلَيْهِم"[2] وفي رواية أخرى عن علي أنه ﷺ "أَمَرَ بِثَوْبٍ، فَوَضَعَ الْحَجَرَ فِي وَسَطِهِ، وَأَمَرَ كُلَّ فَخِذٍ أَنْ يَأْخُذُوا بِطَائِفَةٍ مِنَ الثَّوْبِ، فَرَفَعُوهُ، وَأَخَذَهُ رَسُولُ الله

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الصلاة، باب: كراهية التعري في الصلاة وغيرها، ج١، ص١٤٣، حديث رقم: (٣٥٧). وفي كتاب: الحج، باب: فضل مكة وبنيانها، ج٢، ص٥٧٣، حديث رقم: (١٥٠٥). وفي كتاب: مناقب الأنصار، باب: بنيان الكعبة، ج٣، ص١٣٩٢، حديث رقم: (٣٦١٧).
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، في كتاب: الحيض، باب: الاعتناء بحفظ العورة، ج١، ص٢٦٧، حديث رقم: (٣٤٠).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، وصححه ووافقه الذهبي، عن عبد الله بن السائب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وكان فيمن بنى البيت. وأخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في كتاب الأوائل بإسناد حسن، انظر:.

- النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، مرجع سابق، ج١، ص٤٥٨.
- أبو عاصم، أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم. **الأوائل**، تحقيق: محمد بن ناصر العجمي الكويت: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، (د. ت.)، ص٨٦.

ﷺ"[1] فيتبين أن الله تعالى لم يحرم نبيه من فضل بناء الكعبة بمكة وهي منطلق دعوته ومهوى رسالته، وأكرمه بوضع الحجر الأسود بيده الشريفة إيذاناً ربانياً بكون النبي ﷺ هو اللبنة التي ستختم بها الرسالات وتقام بها أسس العمران، وكل ذلك كان تمهيداً بين يدي النبوة والرسالة.

## ٢- من غار حراء إلى عرصات الحياة:

لا يمكن قراءة لحظة غار حراء على أنها مجرد لحظة عابرة في تاريخ الرسالة الخاتمة، كما لا يمكن تجاهل أن لحظة بناء الدولة بالمدينة سبقتها لحظة غار ثور،[2] فلحظة غار حراء كانت لحظة الإعلان التاريخي عن انبثاق رسالة خاتمة لن تحتاج بعدها البشرية إلى رسالة من السماء؛ لأن نداء ﴿اقْرَأْ﴾ دل على تلك الرؤية السننية الجديدة، أما لحظة غار ثور فقد شكلت لحظة انتقال من سننية العهد المكي إلى سننية العهد المدني، إنها لحظة فاصلة استدعت النظر في الأفق البعيد الذي لاح باستشرافاته نحو تكوين الاجتماع السياسي والاقتصادي بعد أن استكمل الاجتماع العقدي معالمه الكبرى. لقد هيأ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أسباب البعث الرسالي السنني، ليخرج من فوضى الملأ القرشي وأعطابه التي استغرقت مناحي الحياة كلها عبر المرور من لحظة الصفاء الذهني الذي أنتجه فعل التحنث بغار حراء الذي حبب إليه بإلهام رباني بعد الرؤيا الصادقة التي جاءته بها

---

(١) ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد. **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٣م،حديث رقم: (٤٣٦٦)، وذكره ابن إسحاق بصيغة "فزعم بعض أهل الرواية." انظر:

- السهيلي، **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، مرجع سابق، ج١، ص٣٤٦.

(٢) في حديث الهجرة الذي روته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: "ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فكمنا فيه ثلاث ليال." انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ج٣، ص١٤١٧، حديث رقم: (٣٦٩٢).

- السهيلي، **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، مرجع سابق، ج٢، ص١١٢.

النبوة كما دل على ذلك حديث عائشة في البخاري ومسلم،[1] وهو غير تلك الخلوة التي كان بعض من قريش يتحنث بها في الجاهلية، وكان النبي ﷺ قد دخل فيها معتزلاً قومه مستهجناً جاهليتهم، متأملاً في ملكوت السماوات والأرض وآيات الله في الأنفس والآفاق. وقد عبر عن ذلك مالك بن نبي بقوله: "وفجأة أضاءت فكرة[2] في غار، غار حراء، حيث منعزل يقوم فيه متأملاً. وحمل وميضها رسالة بدأت بكلمة

---

(١) عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال: "ما أنا بقارئ،" قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ قلت: "ما أنا بقارئ" فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ [العلق: ١-٣]. فرجع بها رسول الله ﷺ رجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقال: "زملوني، زملوني" فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: "لقد خشيت على نفسي فقالت خديجة: كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى -ابن عم خديجة- وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: أي ابن عمي اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى : "ما رأى". فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً؛ إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أومخرجي هم؟ "قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي." انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: بدء الوحي، تفسير سورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾، ج٤، ص١٨٩٤، حديث رقم: (٤٦٧٠).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي، ج١، ص١٣٩، حديث رقم: (١٦٠).

(٢) الذي أضاء على محمد ﷺ وهو بغار حراء هو الوحي بأنواره وبصائره الربانية، ولامجال هنا للحديث عن فكرة اجتهد هو في حبكها، فلم يكن له علم بذلك حتى فاجأه الملك. ولعل مالك بن نبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يكن يقصد ذلك وكان عليه أن يتحرى أكثر، وتتبع كتاباته يشهد له بذلك، ولكن وجب التنبيه.

﴿ٱقۡرَأۡ﴾. مزقت هذه الكلمة ظلمات الجاهلية، وقضت على عزلة المجتمع الجاهلي. ورأى النور مجتمع جديد متفاعل مع العالم ومع التاريخ، فشرع بهدم ما بداخله من حدود قبلية، ليؤسس عالمه الجديد من الأشخاص؛ حيث كل أضحى حامل رسالته، وليبني عالماً ثقافياً جديداً تتمحور فيه الأشياء حول الأفكار"[1] لقد دخل عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى غار حراء وهو مزود بقيم عالية: صلة الرحم، وحمل الكل، وإكساب المعدوم، وإقراء الضيف، والإعانة على نوائب الحق، وبمصداقية تؤهله لتحمل أعباء الرسالة تتجلى في: الصدق والأمانة.

ولئن كانت معالم ذلك التحول قد بدت منذ لحظة غار حراء ونزول الوحي وبدء الحركة الدعوية النبوية بمكة في بنائها للإنسان الرسالي المؤهل لاستيعاب سننية التاريخ والاجتماع والعمران البشري، فإن هذا التحول قد اتخذ مساراً تاريخياً خاصاً حينما أمر النبي ﷺ الجماعة المؤمنة بالهجرة إلى الحبشة. وتكتسي هذه الهجرة إلى الحبشة داخل بنية التحولات التاريخية الكبرى التي أحدثتها الرسالة الخاتمة دلالات سننية هامة:

أ- "استراتيجية" الحفاظ على قوة هذه الكتلة البشرية الحرجة، وتحييد الجماعة المؤمنة عن الصراع مع خصومهم من الوثنيين حتى لا يستبد بها تفكيرها أمام طغيان الملأ القرشي، فتنتهض للدفاع عن نفسها، كما فعل سعد بن أبي وقاص لما شج ذلك المشرك[2] الذي كان مع جماعة من القرشيين وعاب على الصحابة دينهم واستهزأ بهم فخشي النبي ﷺ أن يشغله هذا الأمر، فتضيع رؤيته المستقبلية في التمكين للرسالة.

---

(١) ابن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص٣٩-٤٠.

(٢) قال ابن إسحاق: "كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينما سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شِعب من شعاب مكة؛ إذ ظهر عليه نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحي بعير فشجّه، فكان أول دم أريق في الإسلام." انظر:
- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص٢٦٣.

ب- تمكين المؤمنين المهاجرين من الوقت الكافي في أجواء من الأمن والعدل في بلاد الحبشة حتى يتحقق لهم بناء اجتماع إسلامي وفق مقتضيات الرسالة ومقوماتها. دل على ذلك حديث الزهري عند عبد الرزاق قال: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ قَالَ: "فَلَمَّا كَثُرَ الْمُسْلِمُونَ، وَظَهَرَ الإِيمَانُ، أَقْبَلَ كُفَّارُ قريش على من آمن من قبائلهم يعذبونهم ويؤذونهم ليردوهم عن دينهم، قَالَ: فبلغنا أن رسول الله ﷺ قَالَ لمن آمن به: تفرقوا في الأرض فإن الله تعالى سيجمعكم، قالوا: إلى أين نذهب؟ قَالَ: ههنا، وأشار بيده إلى أرض الحبشة فهاجر إليها ناس ذوو عدد، منهم من هاجر بأهله، ومنهم من هاجر بنفسه، حتى قدموا أرض الحبشة."(١)

ت- لم تكن الهجرة إلى الحبشة لا سيّما الثانية لما خرج فيها من المسلمين اثنان ومائة من الرجال والنساء هجرة فرار من الأذى والاضطهاد حيث خرج فيها أعز بيوتات قريش وأشرافهم، وإنما كانت بحثاً لموطن آخر تحمى فيه الدعوة، وتبلغ الرسالة وتشكل الاحتياطي البشري "الاستراتيجي" الذي يوفره النبي ﷺ للاحتمالات الممكنة التي تنذر بعدم مسالمة قريش، وإصرارها على استئصال الدعوة والقضاء على إمكاناتها البشرية.

لقد كان الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مدركاً لوظيفته الرسالية العالمية التي تقتضي منه تحقيق عالمية الرسالة الخاتمة من خلال تثبيت منهج الهدى والحق، والسير بهذه الرسالة نحو الظهور الكلي للدين، كما كان مدركاً لخصوصية الاجتماع العربي، ولصيرورات التحول داخل الثقافات والحضارات الأخرى بعين وبصيرة تلحظ سنن الله في التدافع الحضاري والعمران البشري.

---

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه، وهو مرسل صحيح. وأورد ذلك ابن إسحاق بلا إسناد، انظر:

- الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام. **المصنف**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٣هـ، ج٥، ص٣٨٤، حديث رقم: (٩٧٤٣).

- السهيلي، **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، مرجع سابق، ج٢، ص٩٢.

### ٣- من القبيلة إلى الأميين: نحو الظهور الكلي للدين:

من دلالات ختم النبوة أنها كانت إعلاناً لبداية انتهاء مرحلة القبلية والعشائرية، والقطع مع ذلك التاريخ المنغلق للرسالات داخل حدود جغرافية ضيقة، والانفتاح على ذلك الأفق العالمي الذي يجعل من مفهوم الوسط -بمعانيه التي تنسحب على الجغرافيا (مكة هي مركز الكرة الأرضية) والمنهج (الحد الوسط) والأمة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٢]- المحفز الأكبر على إحداث ذلك التحول العالمي بالظهور الكلي للدين. ففي الغالب تأتي الآيات المتحدثة عن الظهور الكلي للدين بعد الحديث عن تجربة بني إسرائيل؛ النموذج الممثل للتجربة الدينية المحكومة بحدود الجغرافيا وخصوصيات القوم، وهي التجربة المقابلة للبعث الرسالي الخاتم، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٨-٩]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٢-٣٣].

إن سورة الجمعة وآيات أخر في المعنى تبطل نفسه دعاوى كثير من التحليلات المادية والوضعية والقومية التي سعت إلى فهم التحول الذي أحدثه النبي ﷺ أنه مجرد توحيد للقبائل العربية، وبناء مشروع عربي مركزي بأبعاد ثقافية وحضارية خاصة. ولم تدرك تلك المقاربات أن قيام وحدة عربية لا شك أنه خاضع لقوانين الحركة الاجتماعية مقابل الصراع أو التدافع مع القوى القائمة وبنيات المجتمع الداعمة لواقع التجزئة. كما أن قيام مثل هذا المشروع يقتضي توافر شروط اجتماعية واقتصادية وسياسية تشكل قوة دفع نحو تحقيق ذلك المشروع. إن الحركة النبوية بفقهها السنني العالمي لم تتجه نحو تكوين قومية، فذلك مخالف لأبعاد الرسالة الخاتمة القائمة على منهجية الوسطية والاستخلاف والعمران والعالمية والإنسانية والشهادة، ولم يكن من

تطلعاته تأسيس سلطة سياسية مركزية توحد القبائل بقدر ما كان الأمر تأليفاً لا توحيداً. يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣]. ومصطلح التأليف القلبي بما يحمله من دلالات نفسية ووجدانية وانفعالية مصطلح قرآني ارتبط تحققه واقعياً في مجتمع الصحابة بالإرادة الإلهية التي شاءت أن تجري هذا التأليف بين القلوب خطوة أولى ودعامة أساسية في التمهيد للظهور الكلي للدين. وقد تكلم ابن خلدون عن تأليف القلوب وما يحصل بسببه من الغلبة وقيام الملك واستتباب حكم الدولة، وبين "أن الملك إنما يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالب، وجمع القلوب وتأليفها، إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه.قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ ٦٣﴾ [الأنفال: ٦٣]. وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس ونشأ الخلاف، وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله، اتحدت وجهتها فذهب التنافس، وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاضد، واتسع نطاق الكلمة لذلك فعظمت الدولة."[1] إنها أصالة الفكرة وفعاليتها في صرف جهود الجماعة البشرية نحو التوحد والاجتماع على غاية كبرى، فتتمكن بفعل هذا الأساس العقدي من إنجاز الأثر المطلوب في توجيه حركة التاريخ وبناء العمران البشري، وتحقيق ذلك الامتداد والظهور عبر آفاق الزمان والمكان.

إن التأليف حركة دالة على مجرد التجميع المفضي إلى التكامل والتناغم لا إلى الانصهار والتوحيد. وقد أشار الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى هذا المعنى فقال: "يريد -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾، وجمع بين قلوب المؤمنين من الأوس والخزرج، بعد التفرق والتشتت، على دينه الحق، فصيرهم به جميعاً بعد أن كانوا أشتاتاً، وإخواناً

(١) ابن خلدون. **المقدمة**، مرجع سابق، ج٢، ص٥١٩.

بعد أن كانوا أعداء"[1] ومما يقوي هذا الذي ذهبنا إليه فهم ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا للآية، فقد جاء في تفسير ابن أبي حاتم (توفي: ٣٢٧هـ)[2] عَنِ ابْنِ عَبَّاس، قَالَ: "إِنَّ الله تَعَالَىٰ إِذَا قَارَبَ بَيْنَ الْقُلُوبِ، لَمْ يُزَحْزِحْهَا شَيْءٌ، ثُمَّ تَلا: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٣].

إن عزة الله وحكمته اقتضت ذلك التأليف النفسي بين جماعة المؤمنين، وهو أمر تنأىٰ عن حمله طاقات النبي ﷺ الذاتية، فلو وكل الأمر إليه فأنفق من قواه العقلية والنفسية والروحية في مستوياتها المثالية النموذجية، واستدعىٰ كل قوىٰ الدفع الحضاري لينفقها نحو إدراك ذلك التأليف، ما تحقق له ذلك لولا عزة الله وحكمته، ولذلك قال القرطبي في تفسيره: "وكان تألف القلوب مع العصبية الشديدة في العرب من آيات النبي ﷺ ومعجزاته؛ لأن أحدهم كان يلطم اللطمة فيقاتل عنها حتىٰ يستقيدها. وكانوا أشد خلق الله حمية، فألف الله بالإيمان بينهم، حتىٰ قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين."[3]

لا يمكن إذن، بحال، إغفال هذا البعد الغيبي في توجيه حركة التاريخ وسنن العمران، وهذا ليس سقوطاً في التفسير اللاهوتي للحركة النبوية، حيث إننا لا نلغي فاعلية الرسول ﷺ، فثمة جدلية تفاعلية بين حركة الغيب والرسول والتاريخ. فالله تعالىٰ هو الذي أراد بعزته وحكمته أن يتحقق ذلك التأليف بأن هيأ له أسبابه وصرف عنه موانعه وأتم شروطه، وحركة النبي ﷺ هي حركة نحو تنزيل تلك الأسباب والشروط لتحقيق وعد الله تعالىٰ في التأليف، إنه تكامل بين سنن الهداية والتوفيق

---

(١) الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، مرجع سابق، ج١٤، ص٦٣.

(٢) ابن أبي حاتم الرازي، عبد الرحمن بن محمد. **تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين**، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكة المكرمة والرياض: مكتبة نزار مصطفىٰ الباز، (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م)، ج١، ص١٧٢٧، حديث رقم: (٩١٣١).

(٣) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، ج٧، ص٣٩٩.

وسنن التدافع والتداول والتجديد. ولعل تحليل هذه الظاهرة الاجتماعية الدالة على ذلك "التأليف الداخلي بين مكونات الجسم الاجتماعي داخل مجتمع المؤمنين بالمدينة" هو المدخل العلمي الموضوعي لفهم أبعاد التحول التاريخي في تاريخ الرسالة الخاتمة في مرحلتها الأولى لبناء عمران إسلامي عالمي. فطبيعة البناء القبلي في الاجتماع العربي لا تؤهل مطلقاً لإحداث وحدة كبرى؛ ووقائع غزوة بني المصطلق وسقيفة بني ساعدة وحرب الردة ومانعي الزكاة تأكيد لهذه الحقيقة الاجتماعية. ففي غزوة بني المصطلق، عندما تحقق النصر للمسلمين وغاظ المنافقين ذلك، أصدر عبد الله بن أبي بن سلول مقالة الفتنة حينما سمع دعوى الجاهلية التي صرخ بها سنان بن وبرة الجهني الأنصاري، وجهجاه بن سعيد وقيل ابن قيس،[1] وسمع الغلام الحدث زيد بن أرقم ما قاله عبد الله بن أبي. وقد أوردت كتب السنة ومصادر السيرة تفاصيل هذا الحدث وما كان فيه من الملابسات المحيطة به.

فعن زيد بن أرقم قال: "كنت في غزاة[2] فسمعت عبد الله بن أبي يقول: لا تنفقوا

---

(١) ذكر ابن إسحاق وابن حزم وابن عبد البر أنه "ابن مسعود". أما الطبري فذكر أنه "ابن سعيد"، في حين ذكر ابن حجر أنه "ابن قيس". انظر:

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٩٠.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد. **جوامع السيرة**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، ص١٢٢.
- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن محمد. **الدرر في اختصار المغازي والسير**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٤م، ص١٣٨.
- الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، مرجع سابق، ج٢، ص٦٢٠.
- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٦، ص٥٤٧.

(٢) غزاة: صرحت الروايات الأخرى بأنها بني المصطلق، وتسمى أيضاً المريسيع وهي ماء لبني المصطلق، والمصطلق هو جذيمة بن كعب من خزاعة. وهو من قولهم: رسعت عين الرجل: إذا دمعت من فساد. وقد كانت في شعبان من السنة الخامسة للهجرة على أصح الأقوال، وممن قال بهذا القول: موسى بن عقبة، وابن القيم، وابن حجر وأورد أدلة تنهض على أنها كانت سنة خمس. وبه جزم الذهبي، قال: "كانت في شعبان سنة خمس على الصحيح، بل المجزوم به". انظر: =

على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي،[1] فذكره للنبي ﷺ فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك؟ فأنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١]، فبعث إليَّ رسول الله ﷺ فقرأ، فقال: "إن الله قد صدقك يا زيد"[2] ومن طريق محمد ابن إسحاق

---

= - ابن سيد الناس، **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، مرجع سابق، ج٢، ص١٤٤.

- السهيلي، **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، مرجع سابق، ج٢، ص٩٢.

- ابن أبي عياش، موسى بن عقبة. **المغازي**، جمع ودراسة وتخريج: محمد باقشيش أبو مالك، أغادير: جامعة ابن زهر/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٤م، ص٢٣١.

- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي. **زاد المعاد في هدي خير العباد**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، ج٣، ص٢٣٨.

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٧، ص٤٣٠.

- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز. **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٢، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م)، ج٢، ص٢٥٨.

(١) في هذه الرواية "أو لعمر" شك الراوي، وفي سائر الروايات التي أثبتها في الحاشية "لعمي" بلا شك، وعمه هنا هو سعد بن عبادة كما وقع عند الطبراني وابن مردويه وليس عمه حقيقة. انظر:

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٨، ص٦٤٥.

(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾، ج٤، ص١٨٥٩، حديث رقم: (٤٦١٧). وباب: قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾، ج٤، ص١٨٥٩، حديث رقم: (٤٦١٨). وباب: قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾، ج٤، ص١٨٦٠، حديث رقم: (٤٦١٩). وباب: قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ =

قال: "حدثني عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر ومحمد بن يحيى بن حبان، كل قد حدثني بعض حديث بني المصطلق: قالوا: "بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له " الحديث، وفيه "وعنده رهط من قومه فيهم: زيد بن أرقم، غلام حدث، فقال (أي عبد الله بن أبي): أوقد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم. فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله ﷺ وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوه، فأخبره الخبر... وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلت ما قال، ولا تكلمت به -وكان في قومه شريفاً وعظيماً- فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، حدباً على ابن أبي بن سلول، ودفعاً عنه... ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومه... ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في ابن أبي ومن كان على مثل أمره، فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم، ثم قال: "هذا الذي أوفى الله بأذنه"[1]

---

= فَنَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾، ج٤، ص١٨٦٠، حديث رقم: (٤٦٢٠). وباب: قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾، ج٤، ص١٨٦١، حديث رقم: (٤٦٢١). وباب: قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، ج٤، ص١٨٦١، حديث رقم: (٤٦٢٢).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، ج٤، ص٢١٤٠، حديث رقم: (٢٧٧٢).

(١) ذكر ذلك ابن هشام في سيرته، وابن أبي عياش في مغازيه مع اختلاف في اللفظ، والطبري في تاريخه من طريق ابن إسحاق، والحديث رجاله ثقات، وقد صرح فيه ابن إسحاق بالتحديث إلا أنه مرسل، وأصله في الصحيحين. انظر: =

ويحكي شاهد عيان آخر هو جابر بن عبد الله الأنصاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ما حدث عند ماء المريسيع وأدىٰ إلىٰ كلام المنافقين، لإثارة العصبية وتمزيق وحدة المسلمين، قال: "كنا في غزاة فكسع[1] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: "ما بال دعوىٰ الجاهلية؟" قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال: "دعوها فإنها منتنة" فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلىٰ المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: "دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه"[2] وفي رواية قال عمر ابن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: مُرْ به عباد بن بشر فليقتله، فقال له رسول الله ﷺ: "فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، لا، ولكن أذن بالرحيل" وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس."[3]

---

= - ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٩٢-٢٩٣.

- ابن أبي عياش، **مغازي موسىٰ بن عقبة**، مرجع سابق، ص٢٣١.

- الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، مرجع سابق، ج٢، ص٦١٩-٦٢٠.

(١) كسع: ضربه برجله. انظر:

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٨، ص٦٥١.

(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: التفسير، باب: سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين، ج٤، ص١٨٦١، حديث رقم: (٤٦٢٢).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: البر والآداب والصلة، باب: نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، ج٤، ص١٩٩٨، حديث رقم: (٢٥٨٤).

(٣) من حديث طويل رواه ابن إسحاق، وقد صرح فيه بالتحديث ورجاله ثقات إلا أنه مرسل، وله شاهد من مرسل عروة عند ابن أبي حاتم قال فيه ابن حجر: وهو مرسل جيد. ورواه أيضاً موسىٰ بن عقبة في مغازيه مع اختلاف في اللفظ، والطبري في **تاريخه** من طريق ابن إسحاق، والحديث رجاله ثقات، وأصله في الصحيحين.

فالتنادي بالانتماء القبلي والاستجارة به دعوى جاهلية منتنة لا تستقيم مع تعاليم الرسالة الخاتمة ومع اللحظة التاريخية التي سيخرج فيها العربي المسلم من حدود قبيلته نحو العالمين، لكن التحول الجذري التام لم يتحقق كليا؛ أي لدى مجموع الصحابة، ولذلك "مشى رسول الله بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً"[1] ولم ينشغلوا بمقالة الفتنة التي أثار من خلالها ابن أبي آماله القديمة في زعامة أهل يثرب وقد كانوا قبل هجرة النبي ﷺ يهيئونه ليتوجوه ملكاً.[2] وكأن ابن أبي لم يدرك حقيقة النبوة واختلط عليه الأمر فظن أنه منازعة على الزعامة والقيادة القبلية. كما أن النبي ﷺ لم يقدم على قتله رغم طلب بعض الصحابة ذلك ومنهم عمر بن الخطاب، وذلك من فقهه السنني الذي يحكم بنظره طبيعة المرحلة وخصوصية الشروط الاجتماعية والمآلات التي يمكن أن تترتب عن الجهل بسنن الله تعالى، وقدكان جوابه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على طلب عمر بقتل ابن أبي: "دعه، لا يتحدث

---

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٩٢-٢٩٣.
- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٨، ص٦٥٠.
- ابن أبي عياش، **مغازي موسى بن عقبة**، مرجع سابق، ص٢٣١.
- الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، مرجع سابق، ج٢، ص٦١٩-٦٢٠.
- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: التفسير، باب: سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين، ج٤، ص١٨٦١، حديث رقم: (٤٦٢٢).
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: البر والآداب والصلة، باب: نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، ج٤، ص١٩٩٨، حديث رقم: (٢٥٨٤).

(١) انظر تخريج الرواية في الهامش السابق.

(٢) في رواية ابن إسحاق أنه "لما حدث رسول الله ﷺ أسيد بن حضير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بمقولة ابن أبي، وزعمه أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال أسيد: فأنت يا رسول الله، والله تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل، وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى إنك قد استلبته ملكاً." نفس تخريج الرواية التي تقدم ذكرها آنفاً في المتن.

الناس أن محمداً يقتل أصحابه."[1]

وحينما يصدر النظر والفعل عن فقه سنني تأتي الوقائع مصدقة له ومتناغمة معه، ولذلك وبعد مدة كان عبد الله بن أبي "إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه ويعنفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: "كيف ترىٰ يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلتَ لي اقتله لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته" فقال عمر: قد -والله- علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري."[2]

إن هذه المرحلة الأولىٰ من العالمية العمرانية الإسلامية اقتضت من النبي ﷺ إتمام عملية التأليف النفسي والاجتماعي وفق سنن الله تعالىٰ، ليتهيأ المجتمع للقيام برسالته الحضارية. أما المرحلة الثانية من العالمية العمرانية الإسلامية حيث اكتمال الأنساق الحضارية الكبرىٰ وتعقد واشتداد أزمة المنهج في العلوم والعمران فهي التي سيتحقق فيها الظهور الكلي للدين، وكأن القرطبي قد تنبه إلىٰ هذا المعنىٰ في تفسيره لآية التوبة ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة: ٣٣] فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "بالهدىٰ؛ أي بالفرقان، ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله؛ أي بالحجة والبراهين. وقد أظهره علىٰ شرائع الدين حتىٰ لا يخفىٰ عليه شيء منها، عن ابن عباس وغيره. وقيل: ليظهره؛ أي ليظهر الدين دين الإسلام علىٰ كل دين. قال أبو هريرة والضحاك: هذا عند نزول عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ . وقال السدي: ذاك عند خروج المهدي، لا يبقىٰ أحد إلا دخل في الإسلام أو أدىٰ الجزية ... وقيل: أراد ليظهره علىٰ الدين كله في جزيرة العرب، وقد فعل"[3] وكأن القرطبي فطن لمرحلتي ظهور الدين: مرحلة الظهور الأولي العالمي داخل شبه الجزيرة العربية، وقد تحقق ذلك، ومرحلة الظهور الكلي للدين وهو العالمية الثانية.

---

(١) سبق تخريجه صفحة (٤٣٧) من هذا الكتاب.

(٢)الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م)، ج٢٣، ص٤٠٧.

(٣) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، ج٨، ص٥٥.

لقد كان الرسول ﷺ يقود عملية تهيئة نفسية واجتماعية وسياسية ينتظمها إحداث انقلاب مفهومي ثقافي عميق في تلك التصورات والرؤى والقيم والمعتقدات، التي جعلت من العربي مشدوداً نحو الأبعاد القبلية، وغير متحرر من حدود الجغرافيا الضيقة؛ إذ صرفته عن الانطلاق نحو آفاق جديدة تخرجه من الصحراء دون أن يفقد ما منحته الصحراء من اقتدار على المواجهة واعتزاز بالذات. إنه عمق الوعي الشمولي السنني بالمرحلة التي يعيشها العربي، ويجتازها المسلم في بداية تفاعله مع مقتضيات البعث الرسالي؛ وهي مرحلة الانشداد الكلي وجدانياً وقيمياً وفكرياً واجتماعياً إلى القبيلة بوصفها وحدة اجتماعية.

لقد كان رسول الله ﷺ يشتغل ويتحرك وفق فقه سنني -لازمه منذ أن بعث رسولاً للعالمين- وهو يتلقى الوحي من ربه عَزَّوَجَلَّ يبصره بسنن الأولين وعاقبة المكذبين، ويدعوه إلى السير في الأرض وقراءة تاريخ الخلق ورؤية آيات الأنفس والآفاق وإحكام العلم بسنن النصر وقوانين الشهود الحضاري فتحقق له ﷺ ذلك النصر والتمكين، ومن يراه في أول أمره أو يسمع عنه وهو يدعو قومه لاستبعد ذلك، لكن حين يراه الشخص نفسه أو تصله أنباء انتصاراته المتتالية وقد شيد صرح عمران حضاري إسلامي عالمي لجزم بأن في الأمر سراً، وإذا اهتدى هذا الشخص إلى الوحي وجد الجواب واضحاً حاسماً؛ إنه الأخذ بسنن العمران وشروط النهضة.

## ٤- الفقه السنني النبوي وعمق الإنجازات التاريخية في تعزيز وتدعيم بنية الشروط الحاسمة لإقامة عمران إسلامي عالمي:

عندما هاجر النبي ﷺ وصحابته إلى المدينة كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قد أنجز عملية البناء العقدي والقيمي الممهدة لتأسيس المجتمع الإسلامي من خلال تنزيل مقتضيات الشريعة، وما تضمنته من الأحكام والقواعد الأصولية[1] المنشئة للنظام الاجتماعي

(١) يقول الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:" اعلم أن القواعد الكلية هي الموضوعة أولاً، والذي نزل بها القرآن على النبي ﷺ بمكة، ثم تبعها أشياء بالمدينة، كملت بها تلك القواعد التي وضع أصلها بمكة، وكان أولها الإيمان =

والعمران البشري، ورسخ الأوليات الأساسية للوعي السنني لدى الصحابة متمثلة في منهج الدعوة والإصلاح، وفي خوض معتركات الابتلاء والتدافع مع الملأ القرشي، وفي شحذ الفعالية الحضارية من خلال فهم حركة التاريخ وتداول الأيام بين الأمم وعدم الاستعجال، مع رؤية استشرافية للمستقبل تستجمع شروط التحول من المجتمع المكي إلى المجتمع والدولة بالمدينة.

ولما استكملت شروط الهجرة، هاجر النبي ﷺ وصحابته إلى المدينة وفق سنن الله تعالى التي قضت بإنهاء الوجود الشركي الوثني بمكة لما أقدم الملأ من قريش على استفزاز النبي ﷺ وإخراجه منها، وهو ما دلت عليه الآية الكريمة: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: ٧٦-٧٧]. ومعنى الآية كما تنبه إلى ذلك باقر الصدر هو: "أنه إذا وصلت عملية المعارضة إلى مستوى إخراج النبي ﷺ من هذا البلد، بعد عجز هذه المعارضة عن كل الوسائل والأساليب الأخرى، فإنهم لا يلبثون إلاّ قليلاً. ليس المقصود من أنهم لا يلبثون إلاّ قليلاً، يعني أنه سوف ينزل عليهم عذاب اللهّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى من السماء؛ لأن أهل مكة أخرجوا النبي ﷺ بعد نزول هذه السورة. استفزوه وأرعبوه وخرج النبي ﷺ من مكة؛ إذ لم يجد له ملجأ وأماناً في مكة فخرج إلى المدينة، ولم ينزل عذاب من السماء على أهل مكة، وإنما المقصود في أكبر الظن من هذا التعبير أنهم لا يمكثون بوصفهم جماعة صامدة معارضة يعني كموقع

---

= بالله ورسوله واليوم الآخر، ثم تبعه ما هو من الأصول العامة؛ كالصلاة، وإنفاق المال، وغير ذلك... وإنما كانت الجزئيات المشروعات بمكة قليلة، والأصول الكلية كانت في النزول والتشريع أكثر. ثم لما خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة، واتسعت خطة الإسلام، كملت هنالك الأصول الكلية على تدريج" وتتعلق كليات القرآن بجانب المعاني والأسرار والحكم والمقاصد التي أرادها الشارع من خلال مجموعة من التصورات والاعتقادات والأخلاق والسلوك التي تضمنتها تشريعات وتكاليف وأحكام الدين وما تقدمه من رؤية الإسلام للوجود والكون والإنسان والحياة، جلباً لمصالح العباد ودرءاً للوقوع في المفاسد. انظر:

- الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**، مرجع سابق، ج٣، ص٧٢.

اجتماعي لا يمكثون، لا كأناس، كبشر، وإنما هذا الموقع سوف ينهار نتيجة هذه العملية، سوف ينهار هذا الموقع، لا يمكثون إلاّ قليلاً؛ لأن هذه النبوة التي عجز هذا المجتمع عن تطويقها سوف تستطيع بعد ذلك أن تهز هذه الجماعة بوصفه موقعاً للمعارضة، وهذا ما وقع فعلاً. فإن رسول الله ﷺ حينما أخرج من مكة لم يمكثوا بعده إلاّ قليلاً؛ إذ فقدت المعارضة في مكة موقعها، وتحولت مكة إلى جزء من دار الإسلام بعد سنين معدودة."[1] وبعد هجرته ﷺ خاض التأسيس الثاني للفقه السنني، وهو ذلك المتعلق بسنن إقامة الدولة والأمة والعمران الإسلامي، ويتجلى ذلك في تلك التدابير والخطوات التي خاضها الرسول ﷺ لحظة تأسيس مجتمع المدينة بما تحمله من دلالات وأبعاد حضارية سامية.

لقد شكلت الهجرة النبوية لحظة فارقة في تاريخ البلاغ النبوي وتحقيق الشهادة على العالمين. ولئن كانت الهجرة أمراً إلهياً، وكان اختيار المدينة وحياً من الله، تجلت فيها بوضوح حكمة الله تعالى ورؤية النبي ﷺ المستقبلية في تدبير شأن المشروع الرسالي، وإتمام مهمة البيان والإصلاح، فإن الأمر لم يخرج عن جريانه وفق سنن الله تعالى في نصر عباده والتمكين لهم حتى يقيموا عمراناً وينهضوا بمهمة الاستخلاف. وقد استحضرت هذه الرؤية النبوية بدقة وعمق حقيقة الوضع القائم بالمدينة وطبيعة تشكلاته الاجتماعية وبنيته القبلية والدينية، فسعى ﷺ إلى تأمين الوضع بتدابير وقائية استباقية دلت عليها بيعة العقبة الأولى[2]

---

(١) الصدر، **السنن التاريخية في القرآن**، مرجع سابق، ص٥٦.

(٢) وتسمى بيعة النساء حيث لم يبايعوا على الحرب، فلم تشرع الحرب إلا بعد الهجرة. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: مناقب الأنصار، باب: وفود الأنصار وبيعة العقبة، ج٣، ص١٤١٣، حديث رقم: (٣٦٧٩- ٣٦٨٠)، وله أطراف أخرى.
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الحدود، باب: الحدود كفارات لأهلها، ج٣، ص١٣٣٣، حديث رقم: (١٧٠٩).
- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٩٢-٢٩٣، وسنده حسن.

والثانية،[1] وإرسال مصعب بن عمير وابن أم مكتوم لتعليم الناس القرآن[2] حتى تشكلت جماعة النصرة، وقدم الله بين يدي نبيه ﷺ يوم بعاث[3] تمهيداً لتأسيس مجتمع المدينة. وإذا كان النبي ﷺ قد عمد بمكة في تدبير الأزمات وإدارتها على ضمان توازن معتبر بين مكاسب الدعوة ومصالحها وتهديدات القوى المضادة؛ إذ هي مرحلة بناء الأفراد والقاعدة الصلبة التي ستتحمل فيما بعد أعباء التبليغ فدعا إلى عدم الاستعجال

---

(١) أخرج رواية بيعة العقبة الثانية ابن إسحاق، بسند حسن، قال الهيثمي: "رواه أحمد والطبراني بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع." انظر:

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص٤٣٨-٤٤٦.
- الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج٢٥، ص٨٩، حديث رقم: (١٥٧٩٨).
- الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، مرجع سابق، ج٦، ص٤٢-٤٥.

(٢) ذكرذلك البخاري وابن إسحاق وابن سعد وغيرهم. انظر

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: مناقب الأنصار، باب: مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة، مرجع سابق، ج٣، ص١٤٢٨، حديث رقم: (٣٧١٠). وفي كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، مرجع سابق، ج٤، ص١٨٨٦، حديث رقم: (٤٦٥٧).
- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص٤٣٤.
- ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، مرجع سابق، ج١، ص١٥٩.

(٣) ففي البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: "كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم، وقتلت سرواتهم وجرحوا، فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام." ويوم بعاث هو وقعة بين الأوس والخزرج، ولهم فيها أيام مشهورة هلك فيها كثير من صناديدهم وأشرافهم، وبعاث اسم أرض بها عرفت. وقيل أن "بعاث هو مكان ويقال حصن وقيل مزرعة عند بني قريظة... كانت به وقعة بين الأوس والخزرج، فقتل فيها كثير منهم... وذلك قبل الهجرة بخمس سنين وقيل بأربع وقيل بأكثر والأول أصح... فقتل فيها من أكابرهم من كان لا يؤمن؛ أي يتكبر ويأنف أن يدخل في الإسلام حتى لا يكون تحت حكم غيره، وقد كان بقي منهم من هذا النحو عبد الله بن أبي بن سلول." وسرواتهم: خيارهم. انظر:

- البخاري. **الجامع الصحيح**، كتاب: مناقب الأنصار، باب: مناقب الأنصار، ج٣، ص١٣٧٧، حديث رقم: (٣٥٦٦).
- السهيلي، **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٤٤.
- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٧، ص١١١.

وقوىٰ في النفوس قيم الاحتساب والصبر، وأمر بالهجرة إلىٰ الحبشة، وبأن يلزم كثير ممن أسلم قبائلهم متحركاً بالدعوة إلىٰ الله حتىٰ يتوافر احتياطي بشري قد يكون بديلاً إذا ما تعرضت الجماعة المؤمنة المكية للإبادة من الملأ القرشي، وأمر بكف الأيدي وعدم الدخول في مواجهة غير مأمونة مع الطرف المشرك، فإنه في مقابل ذلك سينهج منهجاً آخر بالمدينة لتدبير الأزمات وإدارتها بحكم بروز متغيرات جديدة، وتوفر فرص وإمكانات مثلت أرضية لانطلاقة واعدة لبناء المجتمع المسلم والدولة المسلمة، ولم يعد الأمر مقتصراً في إدارة الأزمات علىٰ مجرد برامج فردية وتوجيهات تربوية، بل تعداه إلىٰ"مأسسة" هذا الأمر بشكل يضمن استمرارية البناء الجديد وتوسعه الحضاري خارج المدينة. ولا شك أن قدومه ﷺ المدينة دفعه إلىٰ توقع حدوث أزمات اقتصادية واجتماعية وسياسية نظراً:

- لقدوم جماعة المهاجرين، وقد منعوا عن أموالهم وصادرت قريش أملاكهم.
- الوجود اليهودي المتنفذ اقتصادياً ومعنوياً من حيث هم أهل كتاب.
- الوجود الوثني الذي سيتخذ طرف منه مهمة الإرجاف (المنافقون).
- التربص القرشي وتتبعه لما سيؤول إليه الأمر بالمدينة، فمصالح قريش الاقتصادية صارت معرضة للتهديد، وهو ما أنبأت به غزوة بدر، لذلك كثفت قريش من اتصالاتها مع اليهود والوثنيين بالمدينة.

إن هذا الاستبصار المستقبلي المتمثل في التوقع النبوي لأزمات محتملة أو ممكنة دفع الرسول ﷺ لاتخاذ تدابير عاجلة ذات طابع مؤسسي تنظيمي لحماية المجتمع المدني:

**أ- بناء مؤسسة المسجد:**

روىٰ البخاري بسنده أن رسول الله ﷺ دخل المدينة راكباً راحلته، "فسار يمشي معه الناس حتىٰ بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مربداً للتمر لسهيل وسهل؛ غلامين يتيمين في حجر أسعد بن

زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: "هذا إن شاء الله المنزل" ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمِرْبَد[1] عَلَيْهِم ليتخذه مسجداً فقالا: لا، بل نهبه لك يا رسول الله، فأبىٰ رسول الله أن يقبله منهما هبة حتىٰ ابتاعه منهما، ثم بناه مسجدا."[2] فقد دل الحديث علىٰ أن أول فعل فعله ﷺ لحظة دخوله المدينة هو الأمر ببناء المسجد، ليكون المكان الجامع للمسلمين يؤدون فيه شعائرهم، ويأخذون عن نبيهم دينهم، ويجرون فيه لقاءاتهم ومشاوراتهم، ويتخذون فيه قراراتهم الجماعية بديلاً وتعويضاً عن حالة الفزع التي كانوا يلقونها بمكة. بل جعل النبي ﷺ في مؤخر المسجد الصفة، قال ابن حجر: "الصفة مكان في مؤخر المسجد النبوي مظلل أعد لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوىٰ له ولا أهل، وكانوا يكثرون فيه ويقلون بحسب من يتزوج منهم أو يموت أو يسافر"[3] فنهض المسجد منذ البداية برعاية الغرباء والفقراء، تدبيراً للأزمة الاقتصادية التي أفرزها قدوم مهاجرين جدد بعد بدر حيث تجاوزواً القدرة الاستيعابية للأنصار، فسموا بأهل الصفة، وكان النبي ﷺ يتعهدهم[4] من إطعامهم وتأنيسهم والجلوس معهم وتثبيتهم.

---

(١) المربد: الموضع الذي يجعل فيه الزرع والتمر للتيبيس. وقال ابن حجر: "هو الموضع الذي يجفف فيه التمر. وقال الأصمعي: المربد كل شيء حبست فيه الإبل أو الغنم، وبه سمي مربد البصرة؛ لأنه كان موضع سوق الإبل." انظر:

- السهيلي، **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٣٦.

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٧، ص٢٤٦.

(٢) البخاري. **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ج٣، ص١٤٢٣، حديث رقم: (٣٦٩٤)، ونحوه عند ابن إسحاق. انظر:

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص٤٩٥.

(٣) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٦، ص٥٩٥.

(٤) البخاري. **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، ج٣، ص١٣١٢، حديث رقم: (٣٣٨٨).

**ب- نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:**

وهو نظام اجتماعي فريد أسهم في تقوية الروابط الإيمانية، وتدعيم الانخراط والاندماج الاجتماعي للمهاجرين، وتنمية الجوانب التربوية بين الطرفين خصوصاً المهاجرين الذين يملكون رصيداً تربوياً عظيماً أمكنهم أن يتخذوا من هذه المؤاخاة سبيلاً لتبليغ ما علموه من النبي ﷺ، ولعل ذلك يعد أهم مكسب من هذه المؤاخاة. وهذه المؤاخاة "شرعت وترتبت عليها حقوق وواجبات أخص من الحقوق والواجبات العامة بين المؤمنين كافة."[(١)] وقد نقلت كتب الحديث والمغازي نماذج من ذلك،[(٢)] دلت على أن هذه المؤاخاة لم تكن مجرد تدبير اختياري تطوعي يمكن التملص منه، بل كانت عقداً نافذاً تقاسم بموجبه الأنصار مع إخوانهم المهاجرين المال والمتاع والنساء. كان الأنصار قد واسوا إخوانهم المهاجرين بأنفسهم وزادوا على ذلك بأن آثروهم على أنفسهم بخير الدنيا، فعن أبي هريرة قال: "قالت الأنصار للنبي ﷺ أقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: "لا" فقالوا: تكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمرة، قالوا: "سمعنا وأطعنا"."[(٣)]

---

(١) العمري، **السيرة النبوية الصحيحة: محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص٢٤٠.

(٢) من أمثلة ذلك مؤاخاة النبي ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، ومؤاخاته ﷺ بين أبي عبيدة بن الجراح وأبي طلحة، وذكر ابن إسحاق أسماء الذين آخى بينهم رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار. انظر:

- البخاري. **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: مناقب الأنصار، باب: كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه؟ ج٣، ص١٤٣٢، حديث رقم: (٣٧٢٢).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه رضي الله عنهم، ج٤، ص١٩٦٠، حديث رقم: (٢٥٢٨).

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص٥٠٤-٥٠٧.

(٣) البخاري. **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الحرث والمزارعة، باب: إذا قال اكفني مؤونة النخل وغيره وتشركني في الثمر، ج٢، ص٨١٩، حديث رقم: (٢٢٠٠).

**ت- بناء سوق المدينة:**

في إطار التدافع الحضاري مع اليهود وتحصين الأمة على مستوى الأمن الغذائي والاقتصادي، وتحسباً لمخطط يهودي غادر يشدد به اليهود الخناق على المجتمع المسلم اقتصادياً، وإعداداً لبيئة إسلامية تتعامل بقيم الدين ومبادئه في المعاملات المالية والعلاقات الاقتصادية سعى النبي ﷺ لبناء سوق اقتصادية للمسلمين[1] يقدمون فيها البديل عن الفحش اليهودي، ويكسرون ذلك الاحتكار للأسعار الذي فرضه اليهود على أهل المدينة ردحاً من الزمن.

**ث- الصحيفة أو الكتاب:**

نظم النبي ﷺ العلاقات بين سكان المدينة، وقد أورد محمد الصبحي مرويات الوثائق النبوية المكتوبة سواء ما تعلق منها بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، أم بالمعاهدة بين المسلمين واليهود.[2] وأمر الصحيفة في أصله وثيقتان: تتناول الأولى موادعة الرسول ﷺ لليهود وكتبت قبل بدر، والثانية بين المهاجرين والأنصار وكتبت بعد بدر، لكن عملت المصادرالتاريخية على الدمج بينهما[3] وإن لم يرد نص يدل على ذلك. وقد وضحت الصحيفة[4] التزامات جميع الأطراف داخل المدينة، وسطرت الحقوق والواجبات، ورسمت الخطوط العامة للسياسة الداخلية للدولة الاسلامية،

---

(١) القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد. **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الفكر، (د. ت.)، كتاب التجارات، باب: الأسواق ودخولها، ج٢، ص٧٥١، حديث رقم: (٢٢٣٣).

(٢) الصبحي، محمد بن عبد الله غبان. **مرويات الوثائق المكتوبة من النبي ﷺ وإليه: جمعاً ودراسة**، المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي في الجامعة الإسلامية، إصدار رقم: (١١٢)، ط١، (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م)، ص١٧٦-٢٤٥.

(٣) العمري، السيرة النبوية الصحيحة: محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، مرجع سابق، ج١، ص٢٧٦.

(٤) أفردت في تحليل وثيقة المدينة مؤلفات، وأنجزت أبحاث نذكر منها:

- الشعيبي، أحمد قائد. **وثيقة المدينة: المضمون والدلالات**، سلسلة كتاب الأمة (١١٠)، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٢٦هـ.

وشكلت وعياً جديداً مغايراً للمعطى القبلي والعشائري، وهو الانتماء للأمة، كما نظمت قضايا الدفاع والأمن والتعايش والسلم الاجتماعي، كل ذلك كان مستشرفاً بنظر مستقبلي، ورؤية ترسم المشاهد المحتملة للغد القادم. وقد أثبتث الأحداث والوقائع مدى وجاهة ومصداقية هذا النظر المستقبلي في الحركة النبوية بالمدينة وصحة هذه الاختيارات في تحقيق:

- وضوح الرؤية والالتزام بالمرجعية الحاكمة في عملية التدافع مع الآخر في ظل منظومة عقدية وقيمية وتسخيرية ذات أبعاد إنسانية عالمية، تتحدد بموجبها مجالات التدافع وسياقاته وأهدافه ومستوياته ووسائله.
- إحداث اتصال فعال ومؤثر بين عناصر المجموعة المؤمنة؛ إذ أسهم كل من المسجد ونظام المؤاخاة في تشكل وحدة في المواقف والتصورات والمشاعر والسلوك، وقوّيا آلية الضبط الاجتماعي من خلال إحكام شبكة العلاقات الاجتماعية وإحداث التحول القيمي الإيجابي.
- القدرة على صناعة القرار، والتحكم في مساراته، ومتابعته أثناء التنزيل والتنفيذ.
- التقدير الجيد للمواقف وارتفاع مستوى الجاهزية في توقع الأزمات والتهديدات.
- التدبير الاستباقي للزمن.

ولعل تأمل صيرورات البناء والتحول التي أنجزتها الحركة النبوية بالمدينة والتدافعات اليومية التي كانت تخوضها هذه الحركة داخلياً وخارجياً، والتحديات الكبرى التي واجهتها، وتدبيرها للأزمات ومهددات الوجود الحضاري للأمة يجعلنا ندرك عمق الأبعاد الحضارية السننية لتلك التدابير الاستباقية.

ولما جاءت السنة السادسة للهجرة وتم صلح الحديبية،[1] برزت بقوة عالمية الرسالة، والخروج بالدين من ضيق القبيلة نحو آفاق حضارية جديدة، وهو ما تطلب وعياً سنتياً بالخروج من أجواء القبيلة وما تحمله من قيم ورموز وتصورات إلى عوالم أخرى بقيم ورموز ورؤى مغايرة.

وقد كان حاضراً في وعي النبي ﷺ الفعالية العمرانية الكبرى التي سيحدثها صلح الحديبية بعد أن اعترفت قريش بالكيان المستقل للدولة الإسلامية في إطلاق القدرات الدعوية الذاتية للصحابة، للتمكين للدين في أطراف الجزيرة العربية وخارجها، لما صارت قريش طرفاً محايداً لا تقدر على خوض معارك مع الرسول بموجب بنود الصلح.

لقد منح صلح الحديبية للقيادة النبوية فرص التفكير في بدائل "استراتيجية" تكون أقدر على توفير الشروط لاستكمال عملية بناء أسس ومقومات العمران الإسلامي؛ فأرسل الرسل إلى الملوك والأمراء، وتفرغ لتدعيم وتقوية ركائز التماسك الاجتماعي، وتحييد المهددات الكبرى لهذا التماسك، فكانت غزوة خيبر آخر غزواته ضد اليهود، كما جهز جيش مؤتة في خطوة تاريخية فاصلة تؤسس لعهد جديد في عالمية

(١) كانت غزوة الحديبية في ذي القعدة سنة ست للهجرة، بهذا قال الزهري وموسى بن عقبة وابن إسحاق، وابن كثير وابن القيم، ودلت عليه الأحاديث الصحاح حيث ثبت في الصحيح وغيره من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "اعتمر رسول الله ﷺ أربع عمر كلهن في ذي القعدة إلا التي كانت مع حجته، عمرة في الحديبية في ذي القعدة، وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة، وعمرة من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين في ذي القعدة وعمرة مع حجته." انظر:

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٠٨.

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: العمرة، باب: كم اعتمر النبي ﷺ؟، حديث رقم ١٧٧٦-١٧٧٨-١٧٨٠ وفي كتاب: المغازي، باب: غزوة الحديبية، ج٤، ص١٥٢٥، حديث رقم: (٣٩١٧).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الحج، باب: بيان عدد عمر النبي ﷺ، ج٢، ص٩١٢، حديث رقم: (١٢٥٣).

الرسالة الخاتمة. وقد عبر عن ذلك الإمام الزهري بقوله: "فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر"[1] وكان من بين من أسلم: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، ولذلك عد صلح الحديبية فتحاً بمنطق السنن الإلهية للعمران البشري لما أحدثه من تغيرات وتحولات وانقلابات كبرى في تصورات الصحابة الذين لم يستطيعوا في بداية أمرهم إدراك هذه الحقيقة، وتقبل بنود الحديبية خصوصاً تلك التي بدت لهم بحكم النظر المحدود الذي يأخذ في حسابه معطيات الواقع دون أن ينظر في الآفاق البعيدة والاحتمالات الممكنة والفرص المتاحة، وقبل ذلك وبعده تدخل الغيب في إتمام المشروع الرسالي وفق سنن الله تعالى، وكذا تحولات في العلاقات الدولية ومنطق المفاوضات والتعامل مع الآخر. فـ"عن أنس أن قريشاً صالحوا النبي ﷺ فيهم سهيل بن عمرو فقال النبي ﷺ لعلي: اكتب "بسم الله الرحمن الرحيم"، قال سهيل: أما باسم الله فما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللهم، فقال: اكتب من محمد رسول الله. قالوا: لو علمنا أنك رسول الله لأتبعناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال النبي ﷺ اكتب: "من محمد بن عبد الله" فاشترطوا على النبي ﷺ أن من جاء منكم لم نرده عليكم ومن جاءكم منا رددتموه علينا، فقالوا يا رسول الله: أنكتب هذا. قال: "نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً."[2] وقد تحقق ذلك الجعل الإلهي السنني الذي لم يفقهه

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٢٢.

(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، واللفظ لمسلم، وذكر ابن إسحاق قصة الصلح بتفاصيلها. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الجزية والموادعة، باب: المصالحة على ثلاثة أيام أو وقت معلوم، ج٣، ص١١٦٢، حديث رقم: (٣٠١٣). وفي كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، ج٢، ص٩٧٤، حديث رقم: (٢٥٨١).

كثير من الصحابة إلا بعد نزول سورة الفتح مرجعه ﷺ من الحديبية، وتلك سنن الله تعالى حينما يشاء أن يقيم عباده عمران الأرض وفق شرع الله ودينه، ليدركوا أن سنن الله ماضية، وأن المصادمة معها مكابرة، وأن الغفلة عنها هو الضيق بعينه. لذلك نبه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ صحابته بنظره الممتد خلف ظواهر الأشياء نحو رؤية غيب الله ومشيئته النافذة في تحقق وعده أن ما ورد إلى الذهن والخاطر من أوهام الدنية والمذلة والتنازل عن الحق إنما حصل ذلك بحكم اعتبار مقاييس المادة، وحبس النظر عند حدود المرئي والمحسوس، وكذلك كان.

وقد أجاد ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يعلق على نتائج صلح الحديبية بقوله: "كانت الهدنة مقدمة بين يدي الفتح الأعظم، الذي أعز الله به رسوله وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً، فكانت هذه الهدنة باباً له ومفتاحاً ومؤذناً بين يديه، وهذه عادة الله في الأمور العظام التي يقضيها قدراً وشرعاً أن يوطئ لها بين يديها بمقدمات وتوطئات تؤذن لها وتدل عليها"[1] وقد تقدم تعريف ابن القيم لسنة الله بأنها عادته المعلومة، فيكون هنا معنى عادة الله سنته التي أجراها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قدراً وشرعاً بحسب مشيئته التي قضت وقوع الأمور العظام -مثل صلح الحديبية- نتيجة أسباب ومقدمات تفضي إليها.

لقد كان ذلك الحوار بين النبي ﷺ وصحابته يوم صلح الحديبية يحمل دلالات سننية كبرى ابتغى من خلاله الرسول ﷺ تدريب العقل المسلم على التفكير السنني المتوازن والمتكامل الذي يعي فقه المرحلة وفقه الواقع وفقه الموقع، ويقدر الإمكانات وحجم التحديات، ويتحرك في ميادين بناء العمران وفق سنن الله تعالى في التداول والتدافع. وقد عبرت ردود فعل الصحابة على أنهم لم يدكوا حجم التحول التاريخي في

---

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية، ج٣، ص١٤١١، حديث رقم: (١٧٨٤).

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٢١.

(١) ابن قيم الجوزية، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، مرجع سابق، ج٣، ص٣٠٩.

منهج الحركة النبوية في الخروج من ضيق الأفق القبلي العربي نحو بعث رسالي عالمي تكون انطلاقته هي صلح الحديبية. كما أرشد ذلك الحوار إلى إكمال عناصر الرؤية الرسالية الكلية والشاملة التي تقتضي بناء حضارة إسلامية إنسانية عالمية. ولقارئ السيرة أن يستحضر تلك الأجواء النفسية التي سادت بعد الاتفاق على بنود صلح الحديبية، ليدرك حجم المهمة الكبرى التي قادها النبي ﷺ وهو يؤسس لوعي سنني تدافعي، ففي صحيح الإمام مسلم: عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال: "لما نزلت ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾ [الفتح : ١-٥] مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة وقد نحر الهدي بالحديبية فقال: لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا جميعاً."[1] فالصحابة منعوا ولن يطوفوا بالبيت، ومنهم المهاجرون الذين فارقوا مكة ست سنين وقد حملهم الشوق نحو البيت العتيق، يحدوهم أمل ورجاء في الاستمداد الروحي من أول بيت وضع للناس، وشعروا كأنهم يعطون الدنية في دينهم، يجرون رداءهم أسفين حانقين. ولم تكن هذه فقط الصورة التي قدمتها بعض الروايات مقصورة على عمر بن الخطاب، ففي رواية البخاري أنه: "لما قدم سهل بن حنيف من صفين أتيناه نستخبره، فقال: اتهموا الرأي، فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددت، والله ورسوله أعلم، وما وضعنا أسيافنا على عواتقنا لأمر يفظعنا إلا أسهلن بنا إلى أمر نعرفه قبل هذا الأمر، ما نسد منها خصماً إلا انفجر علينا خصم ما ندري كيف نأتي له."[2] وفي

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية في الحديبية، ج٣، ص١٤١٣، حديث رقم: (١٧٨٦).

(٢) البخاري. **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: غزوة الحديبية، ج٥، ص١٥٣٤، حديث رقم: (٣٩٥٣). و كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، ج٢، ص٩٧٤، حديث رقم: (٢٥٨١). =

رواية مسلم "قام سهل بن حنيف يوم صفين، فقال: أيها الناس، اتهموا أنفسكم، لقد كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية ولو نرى قتالاً لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين، فجاء عمر بن الخطاب فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ألسنا على حق وهم على باطل. قال: بلى. قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار. قال: بلى. قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم. فقال: يا ابن الخطاب، إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبداً"[1] حتى بلغ بهم الأمر في التعبير عن سخطهم وعدم تنبههم لسنن الله تعالى في التمكين لنبيه وإقامة دينه إلى عدم استجابتهم لما خاطبهم النبي ﷺ بنحر الهدي والحلق، حتى أدركته أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بمشورتها فأخرجته من حزنه وأساه، ففي البخاري، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: "قوموا فانحروا، ثم احلقوا" قال -أي عمر بن الخطاب-: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يانبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم

---

= قال ابن حجر في شرحه لحديث صلح الحديبية: "وقد وقع التصريح في هذا الحديث بأن المسلمين استنكروا الصلح المذكور وكانوا على رأي عمر في ذلك، وظهر من هذا الفصل أن الصديق لم يكن في ذلك موافقاً لهم، بل كان قلبه على قلب رسول الله ﷺ سواء". وقد دل على قول ابن حجر رواية البخاري المذكورة وفيها "قال المسلمون: سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما." انظر:

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٥، ص٣٤٦.

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: أبواب الجزية والموادعة، باب: إثم من عاهد ثم غدر، ج٣، ص١١٦٢، حديث رقم: (٣٠١١). وكتاب الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، ج٢، ص٩٧٤، حديث رقم: (٢٥٨١). وكتاب: التفسير، باب: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾، ج٤، ص١٨٣٢، حديث رقم: (٤٥٦٣).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية في الحديبية، ج٣، ص١٤١١، حديث رقم: (١٧٨٥).

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٢٣.

حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما"[1] ولم يهدأ الصحابة حتى "نزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر، فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله، أو فتح هو؟ قال: نعم. فطابت نفسه ورجع."[2]

من هنا ندرك ذلك الوعي السنني الذي امتلكه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خلال مسيرهم إلى مكة وعودتهم منها ونزول سورة الفتح. فهذا الصحابي الكريم البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: "تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع النبي ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم مضمض ودعا، ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا

---

(١) قال ابن حجر: "كأنهم توقفوا لاحتمال أن يكون الأمر بذلك للندب أو لرجاء نزول الوحي بإبطال الصلح المذكور، أو تخصيصه بالإذن بدخولهم مكة ذلك العام لإتمام نسكهم، وسوغ لهم ذلك؛ لأنه كان زمان وقوع النسخ، ويحتمل أن يكونوا ألهتهم صورة الحال، فاستغرقوا في الفكر لما لحقهم من الذل عند أنفسهم مع ظهور قوتهم واقتدارهم في اعتقادهم على بلوغ غرضهم وقضاء نسكهم بالقهر والغلبة أو أخروا الامتثال لاعتقادهم أن الأمر المطلق لا يقتضي الفور، ويحتمل مجموع هذه الأمور لمجموعهم وليس فيه حجة لمن أثبت أن الأمر للفور ولا لمن نفاه ولا لمن قال إن الأمر للوجوب لا للندب، لما يطرق القصة من الاحتمال." انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط،، ج٢، ص٩٧٤، حديث رقم: (٢٥٨١).
- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٥، ص٣٣٣، وج٥، ص٣٤٧.
- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٣١٩.

(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحهما، انظر:

- البخاري. **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: أبواب الجزية والموادعة، باب: إثم من عاهد ثم غدر، ج٣، ص١١٦٢، حديث رقم: (٣٠١١).
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية في الحديبية، ج٤، ص١٤١١، حديث رقم: (١٧٨٥).

نحن وركابنا"[1] قال ابن حجر: "المراد بالفتح هنا الحديبية؛ لأنها كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين، لما ترتب على الصلح الذي وقع منه الأمن ورفع الحرب، وتمكن من يخشى الدخول في الإسلام والوصولَ إلى المدينة من ذلك، كما وقع لخالد بنِ الوليد وعمرو بنِ العاص وغيرِهما، ثم تبعت الأسباب بعضَها بعضاً إلى أن كمل الفتح."[2]

ودخل النبي ﷺ مكة بعد سنتين -بعد أن نقضت قريش عهدها وأخلت ببعض بنود الصلح حيث نصرت حلفاءها من بني بكر على خزاعة[3]- في عشرة آلاف فارس وهو يقرأ سورة الفتح، معلماً الصحابة بتحقق الوعد الإلهي لما حصل الوعي بسنن التدافع والتداول بحسب ما أراده الله تعالى من سننه في الاستخلاف والعمران. وهكذا يتشكل الوعي بأن نتائج الفتح؛ إنما هي متعلقة بمقدمات وأسباب كانت صلح الحديبية أسها وأساسها، كما يدرك العقل المسلم منظومات سنن التسخير والاستخلاف من خلال حدثي صلح الحديبية والفتح وما جرى يوم فتح مكة من خطبة النبي ﷺ. يقول محمد عزة دروزة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ونص سورة النصر الرائع يغني عن التعليق على ما كان من آثار الفتح الباهرة؛ إذ انهدم السد الذي كان بين الإسلام وسائر العرب فتدفق سيل وفودهم -بعد انهدامه- على النبي ﷺ من كل صوب، حتى ليقال إن النبي ﷺ لم يمت حتى دانت الجزيرة إجمالاً للإسلام، وكان في ذلك تحقيق البشرى القرآنية بإظهار الإسلام على الدين كله التي احتوتها سورة الفتح هذه ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ

---

(١) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: غزوة الحديبية، ج٤، ص١٥٢٥، حديث رقم: (٣٩١٩).

(٢) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٧، ص٤٤١.

(٣) روى ابن إسحاق أن بني بكر دخلت في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده بموجب شرط من شروط صلح الحديبية، فلما كانت الهدنة خرج نوفل بن معاوية من بني بكر فأصاب من خزاعة رجلاً، واستيقظت لهم خزاعة، فاقتتلوا إلى أن دخلوا الحرم ولم يتركوا القتال، وأمدت قريش بني بكر بالسلاح، وقدم عمرو بن سالم الخزاعي على رسول الله ﷺ وهو جالس بالمسجد فارتجز أبياتاً فقال له رسول الله ﷺ: نصرت يا عمرو بن سالم. انظر:

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٨٩-٣٩٥، وسنده حسن موصول.

رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ [الفتح: ٢٨] ولم يمض على نزولها إلا سنتان. ولقد كان من آثار الفتح العظيم، تلك الغزوة الكبرى التي سار النبي ﷺ على رأسها إلى تبوك بنحو ثلاثين ألفاً، والتي تكشفت عن رؤيته إمكانات لدفع الإسلام إلى الآفاق البعيدة وتوطيد حرية الدعوة إليه."[1]

ولما كانت السنة التاسعة للهجرة، ونزلت آيات (أو إعلان) براءة في صدر سورة التوبة، لإنهاء الوجود الوثَني في جزيرة العرب، كان رسول الله ﷺ قد أنجز، ومعه تلك الجماعة المؤمنة؛ قاعدة التغيير والبناء الأولى، على مستوى الفعل التاريخي، المنجزات الآتية التي تحمل كل منها أبعاداً عمرانية عالمية دفعت بعمليتي التسخير والاستخلاف إلى مداهما الأقصى بعد مضي أقل من ربع قرن على وفاته:

- التوحيد في مواجهة الشرك والتعدد.
- التأليف في مواجهة التشرذم أو التفكك.
- الدولة في مواجهة القبيلة.
- التشريع في مواجهة العرف.
- المؤسسة في مواجهة التقاليد.
- الأمة في مواجهة العشيرة.
- الإصلاح والإعمار في مواجهة التخريب والإفساد.
- المنهج في مواجهة الفوضى والخرافة والظن والهوى.

---

(١) دروزة، محمد عزة. **سيرة الرسول ﷺ: صور مقتبسة من القرآن الكريم**، صيدا وبيروت: منشورات المكتبة العصرية، ١٤٠٠هـ، ج٢، ص٣٦٦.

استنتج عماد الدين خليل من خلال قراءته للسيرة أن هذه المنجزات العشر هي من أعظم ما أنجزه ﷺ خلال مسيرته الرسالية. انظر:

- خليل، **مدخل إلى الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٥٤.



obeikandl.com

- المعرفة في مواجهة الجهل والأمية.

- الإنسان المسلم الجديد الملتزم بمنظومة القيم الخُلقية والسلوكية المتجذّرة في العقيدة، في مواجهة الجاهليّ المتمرس على الفوضى والتسيّب وتجاوز الضوابط وكراهية النظام.

وما كان لهذه العشارية أن تجد طريقها نحو التحقق التاريخي بأقدار عالية من الأصالة والفعالية والاطراد لو لم تحتكم في منطلقات سيرها إلى منظومات سننية متكاملة ومتوازنة، وتوظف ميزانية هذه المنظومات التسخيرية والاستخلافية في خوض معتركات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد.

obeikandl.com